والحكم السيّء فى حقّها ليسا سوى الثّمرة النّكدة لسوء الظّنّ بالله تعالى والإشراك معه جلّ وعلا سواه. إنّ العربيّ قبل الإسلام لايكاد يفكّر فى البنت إلّا من زاوية كونها فماً آكلا أو هدفاً للغزاة والطّامعين مغريا.

فلنقارن بين حال المرأة قبل الإسلام وحالها بالإسلام كي نتبيّن أيّ منزلةٍ ساميةٍ رفع الإسلام المرأة إليها.

لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾

مثل السَّوْء : مثل : صفة[1] السَّوء، بفتح السّين، مصدر سؤته أسوءُه سَوْءاً[2] والاسم السُّوء بالضّمّ[3].

ولله المثل الأعلى : وهو الأفضل والأطيب والأحسن والأجمل، وذلك التّوحيد والإذعان له بأنّه لا إله غيره[4].

تقرّر الآية الكريمة أنّ للّذين لايؤمنون بالآخرة من كفّار مكّة وسواهم مثل السَّوْء الّذى يسوؤهم وصفة السُّوءَى القبيحة الّتى يتّصفون بها من إشراكٍ مع الله تعالى-سواه وعبادةٍ للملائكة زاعمين أنّ الملائكة بنات الله تعالى سبحانه فى الوقت الّذى يُبْغِضون فيه البنات ويئدون الإناث مع الحاجة لهنّ من أجل النّكاح. كما تقرّر الآية الكريمة أنّ لله تعالى العزيز فى ملكه الحكيم فى صنعه وتدبيره المثل الأعلى والصّفة العليا وهي شهادة ألّا إله إلّا الله وكلمة التوحيد والإذعان بأنّه لا إله إلا هو ولا معبود بحقٍّ سواه جلّ وعلا.

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾

تقرّر الآية الكريمة أنّ ربّ العزّة لو يؤاخذ النّاس بظلمهم وبشركهم ماترك على الأرض من دابّةٍ تدبّ ولا عينٍ تطرف ولا قلبٍ ينبض ولكنّه جلّ وعلا وهو العليم الحليم يؤخّرهم إلى أجلٍ مسمًّى يغادرون فيه هذه الحياة الأولى. فإذا جاء أجلهم وحان موتهم

---

(١) الجلالين.

(٢) لسان العرب : «سوأ».

(٣) لسان العرب : «سوأ».

(٤) تفسير الطّبرى ١٤/٨٤.

لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون عليه، حتّى يستوفوا آجالهم ويبلغوا نهاية أعمارهم.

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾

وتصف ألسنتهم الكذب : وتقول ألسنتهم الكذب وتفتريه[1].

أنّ لهم الحُسْنى : عند الله أي الجنّة[2].

لا جرم : حقّاً واجباً[3].

وأنّهم مُفْرَطون : مخلّفون متروكون فى النّار منسيّون فيها[4]. والفِراط : التَّرْك. وما أَفْرَط منهم أحداً أي ما ترك. وما أفرطت من القوم أحداً أي ما تركت. وأفرط الشيءَ : نسيه. وفى التّنزيل : وأنّهم مُفْرَطون، قال الفرّاء : معناه منسيّون فى النّار، وقيل : منسيّون مضيَّعون متروكون. قال : والعرب تقول أفرطت منهم ناساً أي خلّفتهم ونسيتهم[5].

تقرّر الآية الكريمة أنّ كفّار مكّة يجعلون لله سبحانه وتعالى البنات اللّائى يكرهون وذلك بزعمهم أنّ الملائكة بنات الله تعالى ومن ثمّ هم يعبدونهم. وفى هذا المعنى جاء قول الحقّ جلّ وعلا[6] : ﴿فاستفتهم ألربّك البنات ولهم البنون. أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم شاهدون. ألا إنّهم من إفكهم ليقولون. وَلَد الله وإنّهم لكاذبون. أَصطفى البنات على البنين. مالكم كيف تحكمون. أفلا تذكّرون. أم لكم سلطانٌ مبين. فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين﴾.

---

(١) تفسير الطّبرى ١٤/٨٥.

(٢) الجلالين.

(٣) تفسير الطّبرى ١٤/٨٦.

(٤) تفسير الطّبرى ١٤/٨٦.

(٥) لسان العرب : «فرط».

(٦) سورة الصّافّات ١٤٩ ـ ١٥٧.

والعجيب فى أمر هؤلاء المشركين أنّهم لا يستحيون حينما تقول ألسنتهم الكذب ويزعمون بأنّ لهم الحُسْنى وبأنّ حظّهم يوم القيامة الجنّة! إنّ هذا الفريق الوقح من النّاس يمثّله جنس الإنسان الكافر الّذى أشار إليه قوله تعالى[1] : ﴿لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسّه الشّرّ فيئوسٌ قنوط. ولئن أذقناه رحمةً منّا من بعد ضرّاء مسّته ليقولنّ هذا لى وما أظنّ السّاعة قائمةً ولئن رُجِعْتُ إلى ربّى إنّ لى عنده لَلْحُسْنى. فلننبّئنّ الّذين كفروا بما عملوا ولنذيقنّهم من عذابٍ غليظ﴾.

وتبادر الآية الكريمة إلى تبيين مصيرهم السّيّىء الأكيد فتقرّر أنّ لهم يوم القيامة النّار وأنّهم متروكون فيها منسيّون كما نسوا لقاء يومهم هـــذا.

تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٦٣﴾

تالله : والله[2].

فهو وليّهم اليوم : فى الدّنيا[3].

يقسم ربّ العزّة بذاته العظيمة بأنّه جلّ وعلا قد أرسل رسله إلى أممٍ من قبل محمّد بن عبدالله ﷺ الّذى يخصّه بارئه جلّ وعلا بالخطاب فزيّن لهم الشّيطان الرّجيم سوء أعمالهم كما زيّن لكفّار مكّة وكان وليّهم فى الحياة الدّنيا ولهم فى الآخرة عذابٌ أليـــم.

وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦٤﴾

تخاطب الآية الكريمة المصطفى ﷺ على غرار سابقتها وتقول له عليه الصّلاة والسّلام بأنّ ربّ العزّة والجلال ما أنزل على رسوله الكريم الكتاب العزيز ولم يوح إلى

---

(١) سورة فصّلت ٤٩ و ٥٠.

(٢) تفسير الطّبرى ٨٨/١٤.

(٣) تفسير الطّبرى ٨٨/١٤ والجلالين والكشّاف ٢٠٨/٢ والبحر المحيط ٥٠٧/٥.

نبيّه العظيم بالقرآن الكريم إلاّ ليبيّن للناس الّذى اختلفوا فيه من أمر الدّين. والقرآن الكريم هدىً من الضّلالة ورحمةً لقوم يؤمنون بالله تعالى ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمّد ﷺ رسولاً، وبالقرآن الكريم منهاجاً.

﴿شراب الماء واللّبن والخمر والعسل﴾
الآيـــــات (٦٥ــ٦٩)

وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾

تقرّر الآية الكريمة أنّ ربّ العزّة هو الّذى أنزل من السّماء ماءً فراتاً فأحيا به الأرض الميتة فأنبتت من كلّ زوجٍ بهيج. وكما أحيا الله تعالى الأرض الميتة يحيى الله تعالى يوم القيامة الموتى ويبعثهم من قبورهم لفصل الحساب. إنّ فى آية إنزال الماء من السّماء وإحياء الأرض الميتة لآيةً دالّةً على قدرة الله تعالى على إحياء الموتى لقومٍ يسمعون آيات الله تعالى سماع تدبّر بقلوبهم الواعية.

وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾

الأنعام : الإبل والبقر والغنم(١).

لعبرة : لعظة(٢).

نسقيكم، بضمّ النّون، بمعنى أنّه أسقاهم شراباً دائماً(٣).

مما فى بطونه : الضّمير عائدٌ على الحيوان، فإنّ الأنعام حيوانات. أي نسقيكم ممّا فى بطن هذا الحيوان. وفى الآية الأخرى(٤) : ﴿ممّا فى بطونها﴾ ويجوز هذا وهذا(٥).

من بين فرث : الفَرْث ما فى الكَرِش(٦).

خالصاً : خلص من مخالطة الدّم والفرث فلم يختلطا به(٧).

سائغاً للشّاربين : يسوغ لمن شربه فلا يغصّ به كما يغصّ الغاصّ ببعض ما يأكله من الأطعمة. وقيل إنّه لم يغصّ أحدٌ باللّبن قــطّ(٨).

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/٥٧٤ .

(٢) تفسير الطّبرى ١٤/٨٨ .

(٣) تفسير الطّبرى ١٤/٨٨ .

(٤) سورة المؤمنون ٢١ .

(٥) انظر تفسير ابن كثير ٢/٥٧٤ وتفسير الطّبرى ١٤/٨٩ .

(٦) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «فرث» ٣٧٤ .

(٧) تفسير الطّبرى ١٤/٨٩ .

(٨) تفسير ١٤/٨٩ .

بعد حديث الآية الكريمة السّابقة عن الماء الّذى أنزله الله تعالى من السّماء عذباً فراتاً تتحدّث هذه الآية الكريمة التّالية عن اللّبن الّذى أخرجه الله تعالى من بين فَرْثِ الكَرِش من الحيوان ودم العروق وأسقانا جلّ وعلا إيّاه خالصاً سائغاً دائماً غير مقطوع ولا ممنوع.

إنّ لنا نحن البشر فى الأنعام لعظةً وعبرةً وآيةً دالّةً على قدرة الله تعالى المطلقة ووجوب إفراده جلّ وعلا بالعبادة. والأنعام هي الإبل والبقر والغنم. وقد تحدثت الآيات الكريمات أوّل السّورة عن الأنعام من جوانب متعدّدة تشير إليها الآية الكريمة هنا فى صدرها. وتخصّ وراء ذلك الآية الكريمة إناث الأنعام بالذّكر من زاوية اللّبن الّذى يتمّ بإذن الله تعالى الحصول عليه من إناث الأنعام.

والآية الكريمة تشير إلى دوام اللّبن وعدم انقطاعه بإرادة الله تعالى باستعمال صيغة نُسْقى بضمّ النّون. «وكان الكسائيّ يقول: العرب تقول: أسقيناهم نَهَراً وأسقيناهم لبناً إذا جعلته شرباً دائماً. فإذا أرادوا أنّهم أعطوه شَرْبةً قالوا: سقيناهم فنحن نَسْقيهم بغير ألف»[1].

إنّ ربّ العزّة يُسْقينا لبناً دائماً لا ينقطع بإرادة الله تعالى نستعمله لأغراضٍ شتّى بأن نشربه نحن ونُشْربه سوانا هذا إلى معالجته صافياً أو ممزوجاً فى مختلف الأحوال ومن أجل شتّى الأغراض.

وإنّ هذا اللّبن الغاية فى الصّفاء والنّقاء والبياض، السّائغ للشّاربين الهنيء المريء يخرج بإرادة الله تعالى من بين فرثٍ وهو ما اشتملت عليه الكرش من الحيوان وبين دمٍ أَحْمَرَ قان. إنّ الغذاء إذا نضج فى الكرش أو المعدة يصرف منه دمٌ إلى العروق ولبنٌ إلى الضّرع وبولٌ إلى المثانة وروثٌ إلى المخرج. وكلٌ منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه بعد انفصاله عنه ولا يتغيّر به[2] فسبحان الله تعالى القادر على كلّ شيءٍ الفعّال لما يريد الّذى لا يعجزه شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء.

---

(١) تفسير الطّبرى ١٤/٨٨ والمعنى بغير الألف من أسقى التى مضارعها نُسْقى بضمّ النون. وإنّ مضارع سَقى بالفتح نَسْقى بالفتح أيضاً.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/٥٧٤.

وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

ومن ثمرات : الواوعاطفة . من ثمرات، جارٌّ ومجرور خبرٌ لمبتدأ مقدّر أي ثمر[١] أو ما[٢] والتّقدير : ومن ثمرات النّخيل والأعناب ثمرٌ تتّخذون منه، أو : ومن ثمرات النّخيل والأعناب ما تتّخذون منه . يقول تعالى ذكره : ولكم أيضاً أيّها النّاس عبرةٌ فيما نُسْقيكم من ثمرات النّخيل والأعناب ما تتّخذون منه سكراً ورزقاً حسناً مع مانُسْقيكم من بطون الأنعام من اللّبن الخارج من بين الفرث والدّم[٣].

سكراً : السّكر الخمر نفسها[٤] قال الفرّاء : السّكر هو الخمر قبل أن يحرم والرّزق الحسن الزّبيب والتّمر وما أشبههما[٥] وقد جاء في مقاييس اللّغة[٦] : «السّين والكاف والرّاء أصلٌ واحدٌ يدلّ على حَيْرة» ويبدو، والله أعلم، أنّ هذه المادّة تدور حول الحَبْس والسَّدّ أمّا الحَيْرة فإنّها ثمرةٌ للحَبْس والسّدّ، ومن ذلك السَّكْر بفتح السّين وسكون الكافِ وهو ما يُسدّ به، وكلُّ شَقّ سُدَّ فقد سُكِرَ[٧] والسَّكَر بمعنى الخمر باعتبار مايَعْرض مِنَ السَّدّ بين المرء وعقله[٨] وفي التّنزيل العزيز[٩] : ﴿لقالوا إنّما سُكّرت أبصارنا﴾ أي حُبِست عن النّظر وحيِّرت[١٠].

---

(١) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٧/٢٩٠ .

(٢) تفسير الطّبرى ١٤/٩٠ .

(٣) تفسير الطّبرى ١٤/٨٩ .

(٤) لسان العرب : «سكر» وتفسير الطّبرى ١٤/٩٠ وتفسير ابن كثير ٢/٥٧٤ والجلالين ومفردات الرّاغب الأصفهانى : «سكر» ٢٣٦ ومعجم مقاييس اللّغة : «سكر» ٣/٨٩ .

(٥) انظر لسان العرب : «سكر» .

(٦) معجم مقاييس اللّغة : «سكر» ٨٩ .

(٧) لسان العرب : «سكر» .

(٨) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «سكر» ٢٣٦ .

(٩) سورة الحجر ١٥ .

(١٠) لسان العرب : «سكر» .

كما كان لنا فى الأنعام عظةٌ وعبرة، كان لنا فى النّخيل والأعناب. إنّ للنّاس من ثمرات النّخيل والأعناب، وما أكثر أنواع التّمر والعنب، لثَمَراً يتّخذون منه، قبل تحريم الإسلام للخمر تحريماً قاطعاً، خمراً ليس بالرّزق الحسن ولكن فيه منافع محدودة، ورزقاً حسناً وطعاماً حلالاً طيّباً كالتّمر والزّبيب وما أشبههما. ومع أنّ الآية الكريمة تذكر السّكر بمعنى الخمر من أجل العظة والعبرة من زاوية النّفع المحدود فإنّ القول بعد ذلك : ﴿ورزقاً حسناً﴾ يومىء إلى أنّ هذا السّكَر ليس من الرّزق الحسن فى شىء. ومن هنا ذكر العلماء أنّ الآية الكريمة تمثّل المرحلة الأولى من مراحل تحريم الخمر تدريجاً وأنّ هذه المرحلة بمثابة تهيئة النّفوس لما ينزل فى ذمّ الخمر بعد ذلك حتّى انتهى الأمر بتحريمها تحريماً قاطعاً. والملاحظ أنّ المرحلة الثّانية من مراحل تحريم الخمر تمثّلها الآية الكريمة التّاسعة عشرة والمائتان من سورة البقرة، وأنّ المرحلة الثّالثة تمثّلها الآية الكريمة الثالثة والأربعون من سورة النّساء، وأنّ المرحلة الرّابعة والأخيرة تمثّلها الآيتان الكريمتان التّسعون والحادية والتّسعون من سورة المائدة.

ولمّا كانت هذه الأنواع الّتى لا يكاد يأتى عليها الحصر من أصناف التّمور والأعناب تُسْقَى بماءٍ واحد فقد خُتِمت الآية الكريمة بالقول : ﴿إنّ فى ذلك لآيةً لقومٍ يعقلون﴾ بقصد استعمال العقل استعمالاً صحيحاً وأخذ العظة والعبرة.

ومن البيّن أنّ السّياق تحدّث قبل ذلك عن الماء واللّبن على التّوالى، وأنّه بعد ذلك سيتحدّث عن العسل، بمعنى أنّ السّياق تحدّث عن أنواع الشّراب من الماء واللّبن والخمر والعسل. وإنّ هذا التّرتيب لأنواع الشّراب هو ذات التّرتيب الّذى نصّت عليه الآية الكريمة الخامسة عشرة من سورة محمّد ﷺ. قال تعالى : ﴿مثلُ الجنّة الّتى وُعِدَ المتّقون فيها أنهارٌ من ماءٍ غير آسنٍ وأنهارٌ من لبنٍ لم يتغيّر طعمه وأنهارٌ من خمرٍ لذّةٍ للشّاربين وأنهارٌ من عسَلٍ مصفّى. ولهم فيها من كلّ الثّمرات ومغفرةٌ من ربّهم كمن هو خالدٌ فى النّار وسقوا ماءً حميماً فقطّع أمعاءهم﴾.

ويصحّ أن يقال إنّ ترتيب هذه الأنواع من الشّراب وفق هذا النّسق راعى حكمتي كثرة الحاجة وكثرة الكمّيّة المتوافرة من كلّ شراب[1].

---

(١) أشرنا إلى الحكمة من ترتيب أنهار الجنّة وفق هذا النّسق في كتابنا تأمّلات في سورة محمّد صلّى الله عليه وسلّم ص ١٣٠ فما بعدها الطبعة الثانية . مكة المكرّمة ١٤١٣هـ ١٩٩٣م .

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ
أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى
مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا
شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾

وأوحى ربّك إلى النّحل : وحي إلهام[١] وهداية وإرشاد[٢].

وممّا يعرشون : ممّا يبنون من السّقوف فرفعوها بالبناء[٣] ومن الأماكن وإلّا لم تأو إليها[٤] والعرش في الأصل شيءٌ مسقّف، وجمعه عروش، ومنه قيل : عَرَشت الكَرْم وعرّشته إذا جعلت له كهيئة سقف[٥].

فاسلكى : فادخلى[٦].

سبل ربّك : طرق ربّك[٧].

ذللا : مذلّلة لك. والذُّلل جمع ذَلول[٨].

تقرّر الآية الكريمة الأولى أنّ ربّ العزّة جلّ وعلا ربّ محمّد ﷺ والعالمين وكلّ شيء أوحى إلى النّحل وحي إلهام وإرشاد بأن تتّخذ من الجبال بيوتاً تأوى إليها وتسكن فيها ومن الشّجر الّتى تقلّ عن الجبال ارتفاعاً وممّا يعرش النّاس للنّحل من بيوت ويبنون

---

(١) الجلالين وتفسير الطّبرى ٩٣/١٤ وتفسير ابن كثير ٥٧٥/٢ .

(٢) تفسير ابن كثير ٥٧٥/٢ .

(٣) تفسير الطّبرى ٩٣/١٤ .

(٤) الجلالين .

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «عرش» ٣٢٩ .

(٦) الجلالين .

(٧) تفسير الطّبرى ٩٤/١٤ .

(٨) تفسير الطّبرى ٩٤/١٤ .

من عُرُش. وإنّ الّذين يتعاملون مع النّحل فى الجبال يقولون بأنّ بعض الأماكن الّتى يتّخذها النّحل بيوتاً فى الجبال يكاد يستحيل الوصول إليها بل إنّه ليستحيل فعلاً بسبب المخاطر الّتى تحفّ بالطّريق.

والآية الكريمة الأخرى تقرّر أنّ ربّ العزّة أمر النّحل بأن تأكل من كلّ الثّمرات، والملاحظ أنّ النّحل يمتصّ رحيق الثّمرات دون إفساد، وبأن تسلك سبل ربّها جلّ وعلا المذلّلة الموطّئة. إنّ النّحل لا يصعب عليه طريق، ولا يعسر عليه جبل بإذن الله تعالى. وبعد أن امتطى الإنسان الهواء بإرادة الله تعالى واخترع الطّائرة وعبر المحيطات وقطع الفيافي والأودية وحلّق فوق أعلى الجبال والمرتفعات استطاع الإنسان أن يستوعب الأبعاد لتذليلٍ الله تعالى السّبل للنّحل على جهة الخصوص لأنّ النّحل من أكثر مايطير نشاطاً وسرعةً ودأباً على العمل، حتّى إنّ النّحلة الواحدة من أجل عمل شيءٍ قليلٍ من العسل ربّما قطعت من المسافات فى سبيل الحصول على الرّحيق ما يفوق دورانها حول الكرة الأرضيّة مسافة!

وإنّ حرف العطف «ثمّ» الّذى تبدأ به الآية الكريمة، والّذى يدلّ على التّرتيب مع التّراخى يومىء إلى تلك المجهودات الهائلة الّتى تبذلها النّحلة فى الأكل من كلّ الثّمرات من أجل أن يخرج من بطونها العسل.

وإنّ الآية الكريمة لتصف العسل الّذى يخرج من بطون النّحل بأنّه مختلفٌ ألوانه بناءً على الزّهور والثّمرات الّتى تمتصّ النّحلة رحيقها وتأكلها. وهذا العسل بنصّ الآية الكريمة فيه شفاءٌ للنّاس. وقد فهم العلماء من تنكير لفظة : ﴿شفاء﴾ أنّ العسل شفاءٌ لبعض الأمراض ولو كان شفاءً لكلّ الأمراض لجاءت لفظة شفاء معرّفة.

وما أكثر ما كتب المتخصّصون عن النّحل وعن العسل. وإنّ بعض معاهد البحوث العالميّة قد عكفت على دراسة العسل عشرات السّنين فانتهت إلى نتائج عجيبة أوجزتها الآية الكريمة فى القول : ﴿فيه شفاءٌ للنّاس﴾ فالعسل شفاءٌ للكثير من الأمراض. وحينما قورن بين العلاج الّذى يجمع بين الدّواء والعسل وبين العلاج الّذى يستقلّ بالدّواء تبيّن تفوّق النّوع الأوّل وفضل العسل بإرادة الله تعالى. بل إنّ العسل دواءٌ للأرَق! إضافة إلى خطير الأمراض كالسُّلّ مثلاً وفق ما انتهت إليه معاهد البحوث من نتائج.

أليس فى كلّ ذلك آية لقومٍ يتفكّرون فى القدرة المطلقة للّذات العليّة الّتى لها وحدها دون سواها الخلق فينبغي أنْ يكون لها وحدها الأمر والإفراد بالعبادة؟ بلى. وإنّ هذا المعنى هو الّذى أفصح به التّذييل فى القول : ﴿إنّ فى ذلك لآيةً لقومٍ يتفكّرون﴾.

- ﴿الله تعالى الخالق الرّازق العليم القدير
هو المستحقّ أن يُعْبَدَ وَحْدَه﴾
الآيـــات (٧٠ــ٧٩)

وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾

ثمّ يتوفّاكم : ثمّ يقبضكم[1].

أرذل العمر : أردؤه[2].

تقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذى خلقنا وحده لا شريك له وأوجدنا من العدم. إنّه جلّ وعلا خلق أبانا آدم عليه السّلام من طين، وخلق أمّنا حوّاء عليها السّلام من ضلعه عليه السّلام، وخلقنا وراء ذلك من سلالةٍ من ماءٍ مهين. والله تعالى الّذى خلقنا وأوجدنا من العدم هو الّذى يتوفّانا ويقبضنا إليه حينما تنقضى آجالنا الّتى سمّاها عزّ وجلّ وحدّدها، وهو الّذى ينسأ الأجل لبعضنا حتّى يردّ إلى أرذل العمر وأردئه بسبب الهَرَم والخَرَف فلا يعلم بعد علمٍ أيّ شيء. وإنّ نفي العلم عن الّذى رُدَّ إلى أرذل العمر رشّح لمجيء الصّفة : ﴿عليم﴾ فى حقّ الذّات العليّة، وإنّ القدرة المطلقة الّتى نصّت عليها الآية الكريمة رشّحت لمجيء الصّفة : ﴿قدير﴾ فى حقّ الذّات العليّة أيضاً. ومن البيّن صيغة المبالغة : «فعيل» الّتى جاءت فيها الصّفتان.

وإنّ المعاني الّتى تضمّنتها الآية الكريمة فصّلت بعض جوانبها هذه الآية الكريمة من سورة غافر[3] قال تعالى : ﴿هو الّذى خلقكم من ترابٍ ثمّ من نطفةٍ ثمّ من علقةٍ ثمّ يخرجكم طفلاً ثمّ لتبلغوا أشدّكم ثمّ لتكونوا شيوخاً. ومنكم من يُتوفى من قبل ولتبلغوا أجلاً مسمًّى ولعلّكم تعقلون﴾.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ كان يدعو : أعوذ بك من البُخْل والكسل وأرذل العمر، وعذاب القبر، وفتنة الدّجّال، وفتنة المحيا والممات[4].

---

(١) تفسير الطّبرى ١٤/٩٥.

(٢) تفسير الطّبرى ١٤/٩٥.

(٣) الآية ٦٧.

(٤) صحيح البخارى ٦/١٠٣.

وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾

إنّ الله سبحانه وتعالى الخالق المحيي المميت هو الرّزّاق ذو القوّة المتين. وكما جعلنا الله سبحانه وتعالى متفاوتين فى الآجال والأعمار جعلنا متفاوتين فى الأرزاق. إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى قد فضّل بعضنا على بعض فى الرّزق. وإنّ توفيق الله سبحانه وتعالى بعضنا كي يجتهد وينجح من مظاهر هذا التّفضيل. وبهذا يتبيّن أنّ التّفاوت فى الرّزق وفى الحظوظ من المال والممتلكات من صميم الفطرة الّتى فطر الله تعالى النّاس عليها. وحينما يحاول بعض النّاس مغالبة الفطرة والتّنكّر لطبيعتها بقمعها ومحاولة إرغام الملايين من النّاس كي يكونوا سواسيةً كأسنان الحمار فى مجال المال وغير المال، يكون المصير المحتوم هو الفشل الذّريع ولو مرّ على ذلك النّوع من الظّلم سبعون سنةً أو أكثر أو أقل.

وتأكيداً لحقيقة الرّغبة الفطريّة فى التّملّك تقرّر الآية الكريمة أنّ الّذين فضّلهم الله تعالى فى الرّزق ليسوا برادّى رزقهم وموزّعيه على ما ملكت أيمانهم من العبيد والإماء فهم فى المال سواء. ومن الأدلّة على ذلك أنّ شخصاً واحداً لو أخذ فى تبديد ماله فى هذه الكيفيّة لبادر الحاكم الشّرعيّ إلى الحجر عليه. وفى أسلوب الاستفهام الإنكاريّ تسأل الآية الكريمة فى جزئيّتها الأخيرة: ﴿أفبنعمة الله يجحدون﴾ والمعنى أنّ إشراك الأصنام فى العبادة من مظاهر الجحود والكفران.

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا
وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ
ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾

حفدة : هم ولد الرّجل وولد ولده[1] المفرد حافد وهو المتحرّك المتبرّع بالخدمة. والأسباط ومن فى حكمهم خدمتهم أصدق[2].

تقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى جعل لنا من أنفسنا أزواجاً لنسكن إليها ونطمئنّ، وجعل بيننا مودّةً ورحمة، وأنّ الله سبحانه وتعالى جعل لنا من أزواجنا بنين وحفدةً، ذكوراً وإناثاً، ورزقنا من الطّيّبات غير الخبائث، فهو جلّ وعلا المستحقّ بأن يفرد بالعبادة. وفى أسلوب الإنكار تسأل الآية الكريمة : أفبالباطل من الأصنام والأوثان يؤمنون ويشركون مع الله تعالى فى العبادة، وبنعمة الله تعالى هم يكفرون فلا يفردون بالعبادة المنعم وحده لا شريك لــه.

وإذا كان صدر الآية الكريمة قد جاء مستعملاً ضمير المخاطبين فإنّ عجز الآية الكريمة قد جاء مستعملاً ضمير الغائبين، وفى أسلوب الالتفات هذا لفتٌ للانتباه إلى كفّار مكّة ومن شاكلهم من الّذين بادلوا إحسان الله تعالى إليهم بالكفران.

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾

شيئاً : منصوب على البدل من الرّزق[3].

فلا تضربوا لله الأمثال : فلا تمثّلوا لله الأمثال، ولا تشبّهوا له الأشباه فإنّه لا مثل

---

(١) تفسير الطّبرى ١٤/٩٨ .

(٢) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى : «حفد» ١٢٣ .

(٣) تفسير الطّبرى ١٤/٩٩ وانظر الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٧/٢٩٦ .

له ولا شبه[1] ولا تجعلوا لله أشباهاً تشركونهم به[2].

تقرّر الآية الكريمة الأولى فى معرض النّعي على المشركين أنّهم يعبدون من دون الله تعالى ما لا يملك لهم رزقاً، بل ما لا يملك لهم شيئاً من الرّزق من السّماوات والأرض. ولو أنّهم حاولوا أن يملكوا شيئاً من الرّزق فإنّهم لايستطيعون لأن العجز ديدنهم. وما معنى عبادة المشركينَ هذه الأصنام العاجزة بطبعها؟ معنى عبادتها أنّهم نزّلوها منزلة الإله المعبود بحقّ فكأنّهم شبّهوها فى بعض الصّفات بالله تعالى الخالق الرّازق ذى القوّة المتين، وكأنّهم مثّلوا لله تعالى الأمثال وجعلوا لله تعالى الأشباه. وهذا الخطل الكبير والخطأ العظيم هو ما نهت عنه الآية الكريمة وحذّرت منه وذلك فى القول : ﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾ ولمّا كان ما أتى المشركون من كبير الذّنب بباعث عدم العلم أي الجهل الّذى أفضى بهم إلى كبير السّفه بالتّورّط فى الشّرك ختِمت الآية الكريمة بالقول : ﴿إنّ الله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾. وبعد نهي المشركين عن ضرب الأمثال لله تعالى بالباطل يتحوّل السّياق إلى ضرب الأمثال.

ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا
مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا
فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

بقصد أن تبيّن الآية الكريمة البون الشّاسع بين مقام الألوهيّة ومكان العبوديّة فلا مجال للمقارنة أصلاً تقرّب الآية الكريمة ذلك المعنى القصيّ بضرب المثل. إنّ ربّ العزّة والجلال يضرب فى الآية الكريمة مثلاً عبداً مملوكاً لسيّده فهو لا يقدر على شيءٍ مطلقاً إلّا بإذن سيّده لأنّه فاقد كلّ شيءٍ من طلاقة إرادة وحرّيّة تصرّف ومن كلّ شيءٍ يملكه الحرّ، هل يستوى هذا العبد المملوك الّذى لا يملك من حطام الدّنيا شيئاً ولو كان الوقت أو

---

(١) تفسير الطّبرى ١٤/٩٩.

(٢) الجلالين.

المال وذلك السّيّد الحرّ الإرادة والتّصرّف فى كلّ ما يملك بما فى ذلك المال الّذى رزقه الله تعالى منه رزقاً حسناً طيّباً فهو ينفق منه فى سبيل الله تعالى وفى ضوء أوامره جلّ وعلا سرّاً وجهراً، ليلاً ونهاراً؟ الجواب معروف. لا يستويان. وما دام كفّار مكّة ومن شاكلهم لا يسوّون فى هذا الشّأن بين الحرّ والعبد، بين طلاقة الإرادة والتّصرّف وتحمّل التّبعات وبين العجز المطلق، والإرادة المنعدمة، والفقر المطبق، فكيف يسمحون لأنفسهم بأن يصرفوا العبادة عن الله تعالى ذى الجلال والإكرام الرّزّاق ذى القوّة المتين إلى الأصنام والأوثان الّتى لا تملك شيئاً وهي مملوكة، والّتى لا تخلق شيئاً وهي مخلوقة، والّتى لا تملك لأنفسها فضلاً عن غيرها ضرّاً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً. وتقرّر الآية الكريمة فى التّذييل أنّ أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون حقيقة الخطأ الّذى يرتكبون، والخطر الّذى يأتون إلى الحدّ الّذي يشركون مع الله تعالى تلك الأصنام والأوثان وكأنّهم بذلك أتوا ما نهوا عنه فى القول: ﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾ وكأنّهم جعلوا لله تعالى الأمثال وضربوا له الأشباه، وهو جلّ وعلا: ﴿ليس كمثله شيءٌ وهو السّميع البصير﴾[1].

ومن البيّن أنّ المثل فى جوهره ينهى المشركين أن يسوّوا بين العجز والفقرّ اللّذين تمثّلهما الأصنام والأوثان وبين القدرة المطلقة للّذات العليّة الّتى بيدها ملكوت كلّ شيءٍ ورزق كلّ شيءٍ وحـيّ.

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ
أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ
مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن
يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾

وهو كَلٌّ على مولاه: وهو عيالٌ على ابن عمّه وحلفائه وأهل ولايته[2] وثِقْلٌ على صاحبه[3] ثقيلٌ لا خير فيه[4].

---

(١) سورة الشّورى ١١.

(٢) تفسير الطّبرى ١٤/١٠٠ واللّسان: «كلل».

(٣) اللّسان: «كلل».

(٤) اللّسان: «كلل».

ومن يأمر بالعدل : ومن يأمر بالحقّ ويدعو إليه[1].

تنصّ الآية الكريمة على المثل الثّانى الّذى يأتي بعد المثل فى الآية الكريمة السّابقة للغاية ذاتها فتقرّر أنّ ربّ العزّة والجلال يضرب مثلاً لرجلين اثنين يختلفان فى الصّفات والاستعدادات، وفى الأعمال والنّتائج. وأحد هذين الرّجلين أبكم لا يتكلّم، أخرس لا ينطق، بمعنى أنّه لا يبين عمّا فى نفسه باللّسان ولكن يستعين من أجل هذه الغاية بالعديد من الأعضاء والحركات. وربّما لجأ فى الوقت ذاته إلى لسانه الّذى لاتكاد تختلف نبرته أو نغمته فى حالة عنها فى سائر الحالات. ما أشقّ كلّ ذلك على الأبكم وعلى المستمعين والمتلقّين.

وشاء الله تعالى الّذى وسعت رحمته كلّ شيءٍ أن يكون الصّمم ملازماً للبَكَم، فإن الأبكم لو كان يسمع مايقال فى حقّه دون أن يستطيع أن يجيب أو يدافع عن نفسه، فإنّ ذلك يسبّب له أشدّ الألم النّفسيّ. وإنّ رحمة الله تعالى الّتى وسعت كلّ شيءٍ وكلّ حيّ وسعت الأبكم فجعلت الصّمم والبكم متلازمين.

وهذا الأبكم بسبب بكمه وصممه فى المقام الأوّل لا يقدر على شيء. بمعنى أنّه عاجزٌ عن القيام على الوجه الصّحيح بأيّ شيء. وحينما يكون هذا الأبكم غير قادرٍ على شيءٍ يصحّ أن يكون وراء البكم عللٌ أخرى قد اصطلحت عليه إضافةً إلى الصّمم. وممّا قد يؤيّد هذا الرّأي ويؤكّده القول بعد ذلك عن هذا الأبكم العاجز فى الآية الكريمة : ﴿وهو كَلٌّ على مولاه﴾ بمعنى وهو عبءٌ ثقيلٌ على مولاه وصاحبه من وليٍّ أو وصيٍّ أو أهلٍ ومن إليهم. والكَلّ هو الّذى يُلْقى بِثقله وعِبئه على الآخرين وبذلك يضاف إليهم عبءٌ إلى أعبائهم ويكاد يصلهم من الكَلّ شرٌّ محضٌ لا خير معه.

وإنّ هذا المعنى البعيد هو الّذى تفصح به الآية الكريمة بعد ذلك وذلك فى القول : ﴿أينما يوجّهه لا يأت بخير﴾.

وانظر إلى جملة ﴿يوجّهه﴾ فى الجزئيّة الكريمة. إنّها هي الّتى تأتى هنا وليس جملة يرسله مثلاً أو يبعثه وما أشبههما من الجمل الّتى تفيد أنّ هذا الأبكم له شيءٌ من إرادةٍ أو قدرة على التّفكير أو التّدبير. إنّ جملة : ﴿يوجّهه﴾ فى الجزئيّة الكريمة توحى بأنّ هذا الأبكم أقرب إلى كونه آلةً بحاجةٍ إلى أن يوجّهها إنسان. وإذا كانت الآلة دقيقة الصّنع

---

(١) تفسير الطّبرى ١٤/١٠٠.

صحيحة التّوجيه سليمة الأجزاء ربّما جاء منها الخير. أمّا ذلك الأبكم فإنّه أينما يوجهه مولاه لا يأت بخير أبـداً.

وانظر إلى جملةً : ﴿لا يأت بخير﴾ الّتى تأتى هنا، والمعروف أنّ القرآن الكريم لا يستعمل جملة : ﴿أتى﴾ إلّا دليلاً على البعد الزّمانيّ أو المكانيّ أو النّفسيّ بعكس جملة «جاء» الّتى تستعمل دليلاً على القرب. إنّ القول : ﴿أينما يوجهه لا يأت بخير﴾ يفيد بأنّ هذا الأبكم مهما يتح له مولاه من فسحةٍ فى الوقت من أجل العودة بأدنى نفع هو لا يأتى بخير مطلقاً!

وهكذا يتبيّـن أنّ هذا الأبكم الّذى لا يبين اصطلحت عليه مجموعةٌ من العلل إضافةً إلى الصّمم فهو أبله لا يتصرّف، وحتّى لو وُجّه إلى غايةٍ محدّدةٍ هو لا يأتى بخير.

وتقارن الآية الكريمة بين هذا الأبكم الأبله وبين ذلك الرّجل الّذى يأمر بالعدل وبالقسط، ويدعو إلى الحقّ وإلى صراطٍ مستقيمٍ يسير هو نفسه فيه.

ومن البيّن أنّ الآية الكريمة تصف هذا المهتدى بأنّه يأمر بالعدل ويدعو بلسانه إلى طريق الحقّ. وبذلك تبدأ الآية الكريمة الحديث عن هذا الرّجل من حيث انتهى الحديث عن ذلك الرّجل السّابق الأبكم. إنّ من يأمر بالعدل يكون ناطقاً سميعاً بصيراً ذا بصيرةٍ نيّرة جاهد فى الله تعالى حقّ الجهاد فهداه الله تعالى سبله وأخذ يسخّر نعم الله تعالى عليه فى الدّعوة إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة.

وهكذا نكون بصدد نوعين من الرّجال يكاد يقف أحدهما على النّقيض من الآخر. وجواباً على السّؤال فى الآية الكريمة يقال بداهةً : إنّهما لا يستويان.

ومن البيّن أنّ كلّ الصّفات السّيّئة فى الرّجل الأبكم الّذى لا يأتى بخير توجد فى كلّ ما يُعْبد من دون الله تعالى، فكيف إذا كان هذا المعبود حجراً أحقّ به أن يكون ثالثة الأثافى أو شجراً أحرى به أن يكون وقوداً للنّار الّتى تلتهمه التهاماً أو عجوةً من تمر أولى بها أن تكون وجبةً شهيّة يزدردها عابدها حينما يعضّه الجوع ويسيل لها لعابه.

وإذا كان هذا القول : ﴿ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم﴾ يتّجه إلى المسلم لله ربّ العالمين أساساً فإنّا فى ضوء تبيّن ماهو أسوأ من صفات الأبكم السّيّئة فى الأصنام والأوثان يصحّ لنا بشأن العدل والصّراط المستقيم وفى ضوء مثل قول الحقّ جلّ وعلا[1] : ﴿قل أمر ربّى بالقسط﴾ وقول الحقّ جلّ وعلا[2] : ﴿إنّ ربّى على صراطٍ

---

(١) سورة الأعراف ٢٩ .

(٢) سورة هود ٥٦ .

مستقيم﴾ يصحّ لنا أن نفهم أنّ الهدف البعيد من المثل فى الآية الكريمة النّعي على الكافرين الّذين يضربون لله تعالى الأمثال ويجعلون الأصنام، الّتى هي أسوأ صفاتٍ من ذلك الأبكم الّذى لا يأتى بخير، أشباهاً لله تعالى السّميع البصير القادر على كلّ شيء الّذى يأمر بالعدل ويهدى إلى صراطٍ مستقيم.

وهكذا يتبيّن أنّ المثلين فى الآيتين الكريمتين بمثابة التّبيين لمعنى النّهى فى الآية الكريمة السّابقة لآيتي المثلين الكريمتين : ﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾ وبذلك تأخذ بعض المعانى برقاب بعض فى السّورة الكريمة.

وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ
أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾

كلمح البصر : كنظرةٍ من البصر لأنّ ذلك إنّما هو أن يقال له كن فيكون[1] لمح إليه يلمح لمحاً وألمح : اختلس النّظر. واللّمحة : النّظرة بالعَجَلة. الفرّاء فى قوله تعالى : ﴿كلمحٍ بالبصر﴾ قال : كخطفةٍ بالبصر[2].

أو هو أقرب : أو هو أقرب من لمح البصر[3].

جاء فى الآية الكريمة السّابقة على المثلين القول : ﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾ ثمّ ضربت الآيتان الكريمتان التّاليتان مثلين اثنين، وجاء فى الآية الكريمة السّابقة على المثلين بعد ذلك القول : ﴿إنّ الله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ وإنّ الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تتحدّث فى علم الله تعالى وفى قدرته جلّ وعلا. إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ لله سبحانه وتعالى كلّ ما غاب فى السّماوات وفى الأرض فلا يعزب عن علمه عزّ وجلّ شيءٌ فى الأرض ولا فى السّماء. ومن الغيب وقت قيام السّاعة الّذى لا يعلمه إلّا هو جلّ وعلا. وليس أمر السّاعة وقيامها إلّا كلمح البصر فى سرعة القيام وكخطفته. بل إنّ قيام السّاعة أقرب من لمح البصر وأسرع من خطفته لأنّ ذلك إنّما هو أن يقال له كن فيكون بقدرة الله تعالى. وقد أفصحت الجزئيّة الأخيرة فى الآية الكريمة بهذه القدرة المطلقة للذّات العليّة : ﴿إنّ الله على كلّ شيءٍ قدير﴾

---

(١) تفسير الطّبرى ١٤/١٠٢ .

(٢) اللّسان : «لمح» .

(٣) تفسير الطّبرى ١٤/١٠٢ .

وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾

تحدّثت الآية الكريمة السّابقة عن علم الله تعالى غيب السّماوات والأرض وعن قدرة الله تعالى المطلقة. وإنّ الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تتحدّث عن مظهرٍ من مظاهر قدرة الله تعالى متعلّقٍ بالأرض. وهذا المظهر هو الإنسان الّذى كرّمه جلّ وعلا وفضّله على كثيرٍ ممّن خلق جلّ وعلا تفضيلاً. وحينما نتبيّن أنّ الآية الكريمة التّالية تتحدّث عن الطّير المسخّرات فى جوّ السّماء مظهراً من مظاهر القدرة المطلقة للذّات العليّة ندرك الحكمة من تقديم الحديث عن الإنسان لأنّ الله سبحانه وتعالى كرّمه وجعله على رأس قائمة المخلوقات الأرضيّة.

إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى الّذى خلقنا فى أحسن تقويم وصوّرنا فأحسن صورنا قد أخرجنا من بطون أمّهاتنا لا نعلم شيئاً. والعجيب فى الإنسان الكافر أنّه ينسى هذه الحقيقة أو يتناساها تماماً كما ينسى عمليّة خلقه أساساً أو يتناساها. وإنّ الله سبحانه وتعالى جعل لنا السّمع الّذى به نسمع والّذى يتقدّم سائر الحواسّ فى الأهمّيّة وفى تحصيل العلم، وجعل لنا الأبصار الّتى تلى حاسّة السّمع فى الأهمّيّة وفى تحصيل العلم، وجعل لنا الأفئدة بمعنى القلوب الّتى فى الصّدور والّتى قد تنير بصيرتها وقد تعمى. ومن المعروف أنّ قيام الأفئدة فى مجال الوعي بدورها يأتى متأخّراً ولهذا فيما يبدو ـ والله تعالى أعلم ـ تأخّرت فى الذّكر فى الآية الكريمة. إنّ التّنبيه إلى هذه النّعم فى حقّنا نحن البشر بقصد أن نقوم بما يجب علينا من شكرٍ لله تعالى وذلك بإفراد الله تعالى بالعبادة فى المقام الأوّل.

أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾

فى جوّ السّماء: فى هواء السّماء بينها وبين الأرض[1].

من البيّن أنّ آية الطّير المسخّرات فى جوّ السّماء وفى الهواء بينها وبين الأرض يصحّ أن يقال إنّها آيةٌ سماويّة لأنّ السّماء فى عُرْف العرب كلّ ما علاهم.

---

(١) تفسير الطّبرى ١٤/١٠٢.

إنّ الآية الكريمة تسأل فى إنكار : ألم ير أولئك المشركون إلى الطّير مسخّراتٍ فى جوّ السّماء بيد القدرة الإلهيّة، ألم ينظروا فيعتبروا[1] بتسخير الله تعالى لها فى الهواء بين السّماء والأرض من أجل غرضٍ مختصّ على جهة القهر[2] هذا الغرض هو أخذ العظة والعبرة من هذا الدّليل البليغ على قدرة الله المطلقة. مَنِ الّذى يمسك الطّير سابحاتٍ فى جوّ السّماء صافّاتٍ وباسطاتٍ أجنحتهنّ؟ إنّه الله تعالى الّذى لا إله إلاّ هو. وحينما يقبضن أجنحتهنّ من الّذى يمسكهنّ؟ إنّه الله تعالى الّذى لا إله إلاّ هو. ومن البيّن أنّ الآية أبلغ فى حالة قبض الطّير أجنحتهنّ فى جوّ السّماء.

وبما أنّ المشركين لم ينظروا إلى هذه الآية فيعتبروا تماماً كما لم ينظروا إلى ماهو أكبر منها وأصغر من آياتٍ فيعتبروا فإنّ الآية الكريمة فى التّذييل تنصّ على أنّ الّذين يعتبرون حقّاً هم المؤمنون وحدهم : ﴿إنّ فى ذلك لآياتٍ لقومٍ يؤمنون﴾.

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى : «رأى» ٢٠٨ .

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «سخر» ٢٢٧ .

﴿ الجنّة ثواب الشُّكْران والنّار عقاب الكُفْران ﴾
الآيات (٨٠ــ٨٩)

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ
ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ
وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾

يوم ظعنكم : الظّعن : سَيْر البادية لِنُجْعة (طلب الكلأ فى مواضِعه) أو حضور ماء أو طلب مربع أو تحوّل من ماءٍ إلى ماء أو من بلدٍ إلى بلد. يقال : أظاعنٌ أنت أم مقيم[1] ظعنكم : سفركم[2].

ومن أصوافها : أي الغنم[3].

وأوبارها : أي الإبل[4].

وأشعارها : أي المعز. والضّمير عائدٌ على الأنعام[5].

أثاثاً : متاعاً لبيوتكم[6].

ومتاعاً : زينة[7].

إلى حين : إلى حين آجالهم للموت[8] وأجلٍ مسمّى ووقت معلوم[9].

تقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى جعل لناً من بيوتنا سكناً وهدوءاً، أمناً وطمأنينة، وجعل لنا، والخطاب موجّهٌ أساساً إلى العرب الّذين نزل القرآن الكريم بلسانهم والّذين كان يغلب عليهم حرفة الرّعي وحياة الظّعن والسّفر، وجعل لنا من

---

(١) لسان العرب : «ظعن» .

(٢) الجلالين وتفسير ابن كثير ٢/٥٨٠ وتفسير الطّبرى ١٤/١٠٣ .

(٣) تفسير ابن كثير ٢/٨٥٠ والجلالين .

(٤) تفسير ابن كثير ٢/٥٨٠ والجلالين .

(٥) تفسير ابن كثير ٢/٥٨٠ والجلالين .

(٦) الجلالين وتفسير الطّبرى ١٤/١٠٣ وتفسير ابن كثير ٢/٥٨٠ .

(٧) تفسير الطّبرى ١٤/١٠٣ .

(٨) تفسير الطّبرى ١٤/١٠٣ .

(٩) تفسير ابن كثير ٢/٥٨٠ .

جلود الأنعام، وهي الإبل والبقر والغنم، بيوتاً نستخفّ حلّها وحملها يوم ظعننا وسفرنا، ونستخفّ نصبها وضربها يوم إقامتنا واستقرارنا. كما جعل الله سبحانه وتعالى لنا من أصواف الغنم وأوبارالإبل وأشعار المعز أثاثاً وأغراضاً أساسيّة تعتبر عماد بيوتنا وحياتنا مِنْ أخبيةٍ وأكسيةٍ وألبسةٍ وأغطية وما إلى ذلك، ولبيوتنا ممّا نحلّيها ونزيّنها به. إنّ فى كلّ ذلك متاعاً وزينة إلى حين ووقتٍ معلوم.

والحقيقة أنّ ثمّة الكثير من مظاهر الإعجاز فى الآية الكريمة الّتى يجمل الإيماء إلى بعضها.

إنّ الآية الكريمة يجيء فيها مرّتين اثنتين القول : ﴿لكم﴾ ولا تستغنى عنه مع إمكان ذلك ممّا هو دليلٌ على وجوب القيام بالشّكر للمنعم جلّ وعلا ابتداءً بإفراده جلّ وعلا بالعبادة. وحينما يشرك بعض النّاس الأصنام والأوثان فى العبادة فذلك دليلٌ على أنّهم قابلوا نعم الله تعالى بالكفر والكفران.

وحينما نعلم أنّ جملة : ﴿جعل﴾ تفيد التّصيير ففى ذلك تنبيهٌ إلى نعم الله تعالى علينا بإيجاد الموادّ الّتى نبنى بها البيوت من العدم وبالتّالى نجعل نحن تلك الموادّ ونصيّرها بيوتاً.

والانسجام بين البيوت والسّكن فى الآية الكريمة غايةٌ فى الكمال لأنّ لفظة البيت تفيد أنّ النّظرة إلى المكان كانت من زاويةكونه مأوى الإنسان باللّيل، لأنّه يقال : بات أقام باللّيل، كما يقال : ظلّ بالنّهار[1] والله سبحانه وتعالى : ﴿فالق الإصباح وجعل اللّيل سكناً﴾[2] وإنّ معاني السّكون باللّيل بعد حركة النّهار والهدوء والأمن والطّمأنينة عبّر عنها أبلغ تعبير القول الّذى يجمع بين البيوت والسّكن. قال تعالى : ﴿والله جعل لكم من بيوتكم سكناً﴾ وهذه المعانى يؤكّدها تكرار لفظة البيوت فى الآية الكريمة.

والآية الكريمة حينما تشير إلى البدو الرّحّل فى القول : ﴿وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تستخفّونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم﴾ إنّما تراعى الفئة البدويّة الرّعويّة الغالبة على العرب قبل الإسلام. ووراء ذلك فإنّ الفئة الحضريّة المستقرّة لا تخفى عليها هذه النّعم الّتى يستفيد منها الرّعاة بدرجةٍ أكبر لأنّها تنال هي الأخرى الكثير من المنافع من البيوت ومن الأنعام ومن الأصواف والأوبار والأشعار متاعاً وحلية، أثاثاً وزينة.

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «بيت» ٦٤.

(٢) سورة الأنعام ٩٦.

وإذا كنّا بشأن الأنعام نرتّب عناصرها بناءً على النّفع وفق هذا النّسق فى العادة الإبل والبقر والغنم. ويلحق بالغنم المعز، فإنّ الفوائد حينما كانت وفق غير هذا النّسق بشأن أوبار الإبل وأصواف الغنم وأشعار المعز فإنّ الآية الكريمة أعادت ترتيب هذه العناصر فى ضوء القيمة والنّفع. قال تعالى: ﴿ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها﴾.

وفى تقديم الآية الكريمة الأثاث وهو نفعٌ وتأخير المتاع وهو زينة تأكيدٌ لتقديم الإسلام وكلّ دينٍ سماويّ الحقّ والخير على الجمال.

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾

ظلالاً: تستظلّون بها من شدّة الحرّ وهي جمع ظِلّ[1].

أكناناً: الأكنان جمع الكِنّ. وهو ما يُحْفَظُ فيه الشيء[2] والمراد مواضع من الجبال تسكنون فيها وغيران[3].

سرابيل تقيكم الحرّ: يعنى ثياب القطن والكَتّان والصّوف وقمصها[4] والسّرابيل جمع السِّربال وهو القميص من أيّ جنس كان[5].

وسرابيل تقيكم بأسكم: ودروعاً تقيكم بأسكم. والبأس هو الحرب[6] قال قتادة: هي سرابيل من حديد[7].

لعلّكم تُسْلِمون: لتخضعوا لله بالطّاعة، وتذلّ منكم بتوحيده النّفوس، وتخلصوا له العبادة[8].

---

(١) تفسير الطّبرى ١٤/١٠٤.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى: «كن» ٤٤٢.

(٣) تفسير الطّبرى ١٤/١٠٤.

(٤) تفسير الطّبرى ١٤/١٠٤.

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانى: «سربل» ٢٢٩.

(٦) تفسير الطّبرى ١٤/١٠٤.

(٧) تفسير الطّبرى ١٤/١٠٤.

(٨) تفسير الطّبرى ١٤/١٠٤.

بعد حديث الآية الكريمة السّابقة عن البيوت بنوعيها الثّابت والمتحرّك، وإن كان الغالب نوع البيوت المتحرّكة لكون العرب آنذاك يغلب عليهم حرفة الرّعي والتّنقّل، والمعروف أن الإنسان هو الذى يعمل بإرادة الله تعالى تلك البيوت، تحوّل الحديث فى هذه الآية الكريمة التّالية فى مجال السّكن إلى ما لا يد للإنسان فى صنعه، هذا إلى تمام نعمة السّكن والطّمأنينة خارج البيوت والأكنان عن طريق أنواع الألبسة سلماً وحرباً.

إنّ الآية الكريمة تبدأ على غرار السّابقة بالقول: ﴿والله جعل لكم﴾ وبناءً على كلّ ذلك فالمستحقّ للعبادة هو الله تعالى وحده لا شريك له. إنّ الله سبحانه وتعالى جعل لنا نحن البشر فى المقام الأوّل ممّا خلق جلّ وعلا وأوجد من العدم ظلالاً. والمعروف أنّ الظّلّ - على نحو مامرّ بنا من قبل - يرتبط بصدر النّهار حتّى الزّوال ثمّ يتحوّل الظّلّ من الغرب إلى الشّرق ويصير فيئاً فيقال آنذاك فاء الظّلّ أيّ تحوّل من الغرب إلى الشّرق وفاء من وقت ماقَبْلَ الزّوال إلى وقت مابعد الزّوال. والمعروف أنّ جملة ظلّ تستعمل مع النّهار فى حين تستعمل جملة بات مع اللّيل. هذا هو أصل الاستعمال. ثمّ كان تسامحٌ فى التّعبير. وحينما يكون جمعٌ بين الظّلّ والفيء فى الكلام يرتبط الظّلّ بالغداة والفيء بالعشيّ.

وبشأن ظلّ أوّل النّهار الّذى يكون ناحية الغرب يلاحظ أنّه يأخذ فى التقلّص بمقدار ارتفاع الشّمس فى السّماء. فإذا كانت الشّمس فى كبد السّماء كان وقتُ الزّوال. وبمقدار اتّجاه الشّمس نحو الغروب يأخذ الفيء فى الطّول حتّى غروب الشّمس.

وما معنى تقلّص الظّلّ بالغداة؟ معناه اشتداد الحرارة وشدّة الحاجة إلى الظّلال.

وإنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى هو وحده لا شريك له الّذى جعل لنا من بعض ما خلق ظلالاً كالجبال والشّجر والغمام. ويلاحظ أنّ الجبال راسخة، وأنّ ظلّها، حينما يكون ثمّة ظلٌ بالغداة، ثابتٌ وأكيد. وإنّ ظلّ الشّجر يليه فى الثّبات. وإنّ ظلّ الغمام يليهما فى الثّبات. ووراء ذلك فإنّ المسافر قد يستظلّ بالجبل، ولكنّه يستظلّ بصفة أكثر فى الغالب بظلّ الشّجر. أمّا ظلّ الغمام فطارىء كالغمام ذاته.

ولمّا كان حظّ الجبل من الظّلال فى حقّ المسافرين والمقيمين على السّواء هو الأكبر فإنّ الآية الكريمة بعد الإشارة إلى مطلق الظّلال ومنها ظلال الجبال خصّت الجبال بالذّكر. وكان الحديث عن الجبال امتداداً لحديث الآية الكريمة السّابقة عن البيوت وحديث صدر هذه الآية الكريمة عن مطلق الظّلال ومنها ظلال الجبال. قال تعالى: ﴿وجعل لكم من الجبال أكناناً﴾ وقد عرفنا أنّ الأكنان جمع الكِنّ بكسر النّون وهو

مايُحْفَظ فيه الشيء، والمراد هنا الغيران الّتى يستكنّ فيها النّاس وربّما اتّخذوها سكناً دائماً. وكي تتمثّل شيئاً بسيطاً من فضل الله تعالى على البشريّة بهذه الغيران فى إمكاننا أن نتمثّل غار حراء فى جبل النّور بمكّة المكرّمة ذلك الغار الّذى كان المصطفى ﷺ يعبد ربّه جلّ وعلا فيه على ملّة إبراهيم عليه السلام. بقي علينا أن نعرف أنّ جبل النّور أعلى جبال مكّة، وأنّ موقع الغار فيه فريد بحيث إنّ من يكون فيه يرى البيت العتيق والمسجد الحرام وسائر أنحاء مكّة المكرّمة فى الجهة المقابلة للغار. وفى إمكاننا أن نتمثّل كذلك غار ثور فى جنوب مكّة وقد لجأ إليه المصطفى ﷺ ومعه أبوبكر رضي الله تعالى عنه فى أثناء الهجرة لعلمه عليه الصّلاة والسّلام أنّ كفّار قريش سيبحثون عنه ﷺ ناحية الشّمال باتّجاه المدينة المنوّرة فخدعهم عليه الصّلاة والسّلام بإيحاءٍ من ربّه جلّ وعلا. وقد جاءت الإشارة إلى هذا الغار من جبل ثور فى قول الحقّ جلّ وعلا من سورة التّوبة[1] ﴿إلّا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الّذين كفروا ثاني اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إنّ الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيّده بجنودٍ لم تروها وجعل كلمةَ الذين كفروا السُّفْلَى. وكلمةُ الله هي العُليا. والله عزيزٌ حكيم﴾.

وبقصد شدّ الانتباه إلى ضخامة الغيران والدّور الّذى تقوم به فى استطاعتنا أن نستذكر الكهف الّذى سمّيت به سورة الكهف والّذى أوى إليه الفتية المؤمنون من أتباع عيسى عليه السّلام الّذين زادهم الله تعالى هدىً من لدنه جلّ وعلا. والمعروف أنّ لفظة الكهف فى القرآن الكريم لم تجىء إلّا فى سورة الكهف وذلك فى الآيات الكريمات (٩، ١٠، ١١، ١٦، ١٧، ٢٥) ومن ذلك قول الحقّ جلّ وعلا[2] : ﴿أم حسبت أنّ أصحاب الكهف والرّقيم كانوا من آياتنا عجباً. إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربّنا آتنا من لدنك رحمةً وهيّىء لنا من أمرنا رشداً. فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عدداً﴾.

وبقصد تبيين شيءٍ من أبعاد معنى قول الحقّ جلّ وعلا فى آية سورة النّحل : ﴿وجعل لكم من الجبال أكناناً﴾ فى الإمكان بشأن الكهف الّذى لبث فيه الفتية المؤمنون بإذن ربّهم جلّ وعلا ثلاثمائة سنةٍ شمسيّة وثلاثمائة وتسع سنوات قمريّة، وبشأن أيّ كهفٍ مماثلٍ أو أكبر أو أصغر هل تستطيع أكبر قوى الأرض أن تعمل أيّ كهفٍ يقاوم كلّ العواملً إلى أن يرث عزّ وجلّ الأرض ومن عليها؟ الجواب بالنّفى. وفى المقابل : إن

---

(١) الآية ٤٠.

(٢) سورة الكهف ٩ - ١١.

فى كلّ كهفٍ فى كلّ جبلٍ آيةً كبرى دالّةً على قدرة الفعّال لما يريد فكيف بالجبال نفسها وكيف بأضخم الجبال وكيف بجبال الهملايا فى الهند وقمّة إفرست أعلى قمم الجبال فى الكرة الأرضيّة الطّويلة العريضة!

ومن البيّن مراعاة الآية الكريمة البيئة الحارّة الّتى يسكنها عرب الجزيرة العربيّة الّذين نزل القرآن الكريم بلسانهم. فثمّة الظّلال من الشّمس الحارقة فى المقام الأوّل، وثمّة الأكنان فى الجبال من الشّمس والحرّ والقُرّ والعواصف الهوج والمطر ومختلف الآفات. وإنّ هذه البيئة الحارّة تراعى فى هذا القول كذلك: ﴿وجعل لكم سرابيل تقيكم الحرّ﴾ ويأتى القطن والكتّان ومافى حكمهما فى المقام الأوّل لملاءمة هذه الأنواع من الملابس الّتى تميل إلى البياض غالباً للشّمس الحارقة والحرارة اللّافحة.

وقد سكت السّياق عن السّرابيل الّتى تقى النّاس البرد والقُرّ لأنّ ذلك المكسوت عنه مفهومٌ ضمناً، ولأنّ المكّيّين الّذين تخاطبهم على جهة الخصوص هذه السّورة الكريمة المكّيّة الّتى نزلت قبل الهجرة لا يكادون يعرفون فى مكّة المكرّمة الشّتاء القارس. ولانسجامهم مع المكان والزّمان الدّافئين كانت رحلاتهم مراعيةً الأوقات الملائمة فكانت رحلاتهم إلى الشّام البلاد الباردة صيفاً، ورحلاتهم إلى اليمن البلاد الحارّة شتاءً.

ولمّا كانت الحروب جزءاً لا يكاد يتجزّأ من حياة العربيّ الّذى يشقى دائماً بحرارتها ولظاها وكان ربّ العزّة قد منّ على عباده بالدّروع الحديديّة وما شاكل ذلك من بقيّة العُدد الّتى يرتديها المقاتل لذا كان فى الآية الكريمة تنبيهٌ على هذا النّوع من النّعم وذلك فى القول: ﴿وسرابيل تقيكم بأسكم﴾ وفى الإمكان أن نتمثّل حقيقة نعمة هذه الدّروع الّتى تحمى الأجساد بإرادة الله تعالى من أذى السّلاح حينما نتمثّل أبسط معركة يرتدى المقاتلون فيها السّرابيل الّتى تقيهم الحرّ أو البرد وليس البأس. وقد جاء فى معرض المنّ على البشريّة الإشارة إلى تعليم الله تعالى داود عليه السّلام صنع الدّروع الّتى يلبسها المقاتلون وكانوا يلبسون مِنْ قَبْلُ الصّفائح، وذلك فى قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة الأنبياء[1]: ﴿وعلّمناه صنعة لَبوسٍ لكم لتُحْصِنَكُمْ منْ بأسكم فهل أنتم شاكرون﴾ وقال تعالى[2]: ﴿ولقد آتينا داود منّاً فضلاً ياجبالُ أَوِّبى معه والطّيْرَ وألنّا له الحديد﴾.

وتختم الآية الكريمة بالقول: ﴿كذلك يتمّ نعمته عليكم لعلّكم تسلمون﴾ والمعنى

---

(١) الآية ٨٠.

(٢) سورة سبأ ١٠.

كما خلق الله سبحانه وتعالى لكم هذه الأشياء وأعطاكم إيّاها وسخّرها من أجلكم يُتمّ جلّ وعلا نعمه الّتي لاتستطيعون أن تحصوها ولو حرصتم لعلّكم تسلمون لله ربّ العالمين، وتفردونه وحده لا شريك له بالعبادة.

وحينما يكون الخطاب مراعياً العرب مادّة الإسلام الأولى الّذين نزل القرآن الكريم بلسانهم، وحينما تكون رسالة الإسلام عالميّةً منذ فجرها تكون مسئوليّة العرب فى المقام الأوّل فى سبيل إيصال رسالة الإسلام إلى الدّنيا كلّها هي الأكبر وهي الأخطر. ولعلّ العرب الّذين نسوا رسالتهم وذُهلوا عن المهمّة العظمى المنوطة بهم يذكرون بعد نسيان، ويصحون بعد سِنة، ويفيقون بعد غفلة. نسأل الله تعالى أن يهيّء لنا من أمرنا رشداً. آميـــــن.

فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾

تخاطب الآية الكريمة الأولى المصطفى ﷺ وتقول له : فإن تولّى كفّار مكّة فى المقام الأوّل ومن شاكلهم من المشركين وأعرضوا عن دعوتك لهم أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم إلى صراط العزيز الحميد فإنّما عليك البلاغ المبين وحده والدّعوة الواضحة الصّريحة. وإنّ لسان حال الآية الكريمة يقول : وقد بلّغت أيّها الرّسول الكريم الرّسالة، وأدّيت الأمانة، وكنت لقومك النّاصح الأمين. وهذا منتهى المطلوب منك. ولله الأمر من قبل ومن بعـــــد.

والآية الكريمة الأخرى تقرّر أنّ كفّار مكّة في المقام الأوّل ومن شاكلهم من المشركين الّذين ذكّرتهم السّورة الكريمة بنعم الله تعالى عليهم يعرفون هذه النّعم ولكنّهم ينكرونها فى الحقيقة لأنّ معرفتهم لها لم تُفْضِ بهم إلى إفراد الله تعالى بالعبادة واتّباع الرّسول الكريم ﷺ وتصديق القرآن الكريم والعمل ليوم الدّين. إنّهم كرّروا عن الأصنام والأوثان القول الّذى جاء على لسانهم فى قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة الزّمر[1] : ﴿ما نعبدهم إلّا ليقرّبونا إلى الله زُلْفى﴾ لقد وصفت الآية الكريمة أولئك العارفين المنكرين بأنّ أكثرهم كافرون. يبادلون الإنعام بالنُّكران والكفر والكُفران.

ومن البيّن أنّ كبرى النّعم الّتى أنكروها نعمة دين الإســـــلام.

---

(١) الآية ٣ .

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾

ثمّ لا يؤذون للّذين كفروا : فى الاعتذار فيعتذروا ممّا كانوا بالله وبرسوله يكفرون[١] يقال : أَذِن له فى الشيء إذْناً أباحه له[٢] وأذن له أَذَناً : استمع[٣].

ولا هم يُسْتَعْتبون : ولا يُطْلَب منهم العُتْبىَ أي الرّجوع إلى مايرضى الله[٤] والعُتْبىَ : الرّضا[٥] والعُتْبىَ : اسم على فُعْلىَ، يوضع موضع الإعتاب، وهو الرّجوع عن الإساءة إلى مايُرْضى العاتِب[٦] تقول : استعتبته فأعتبنى أي استرضيته فأرضانى[٧].

تشير الآية الكريمة إلى الموقف العصيب للكافرين يوم القيامة فتقول : واذكر أيّها الرّسول الكريم يوم القيامة الّذى نبعث فيه من كلّ أمّةٍ شهيداً هو رسولها الّذى أرسلناه إليها فيشهد أنّه قد بلّغ رسالة ربّه أمّا الكافرون فإنهم لا يؤذن لهم ولا يُصْغَى إليهم ولا يُسْمح لهم بالقول ولا يُطْلَب منهم العُتْبى والرّجوع إلى ما يرضى الله تعالى، بل ولا يُمَكّنون من الرّجوع عن الإساءة إلى مايُرْضى الله تعالى بإجابة طلبهم العودة إلى الحياة الدّنيا، لأنّ يوم القيامة يوم الجزاء ولا عمل كما أنّ الحياة الدّنيا دار العمل ـ ليوم الدّين والجزاء.

وإنّ الإذن للرّسل بالقول الّذى سكتت عنه الآية الكريمة وما يترتّب على ذلك من شفاعة أشار إليه مثل قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة المائدة[٨] : ﴿يوم يجمع الله الرّسل فيقول ماذا أُجِبْتُم قالوا لا عِلْم لنا إنّك أنت علاّم الغيوب﴾.

---

(١) تفسير الطّبرى ١٤/١٠٦ .
(٢) اللّسان : «أذن» .
(٣) اللّسان : «أذن» .
(٤) الجلالين .
(٥) اللّسان : «عتب» .
(٦) اللّسان : «عتب» .
(٧) اللّسان : «عتب» .
(٨) الآية ١٠٩ .

وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾

ولا هم يُنْظَرون : ولا يرجئون بالعقاب[١] ولا يمهلون عنه إذا أرادوه[٢] أي الإمهال .

إنّ الكافرين إذا رأوا عذاب يوم القيامة وطلبوا تخفيفه لن يخفّف عنهم، أو طلبوا تأجيله وتأخيره لن يؤجّل ولن يؤخّر.

وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾

وإذا رأى الّذين أشركوا شركاءهم : وإذا رأى المشركون بالله يوم القيامة ما كانوا يعبدون من دون الله من الآلهة والأوثان وغير ذلك[٣].

قالوا ربّنا هؤلاء شركاؤنا الّذين كنّا ندعو من دونك : قالوا ربّنا هؤلاء شركاؤنا فى الكفر بك والشّركاء الّذين كنّا ندعوهم آلهةً من دونك[٤].

فألقوا إليهم القول : العرب تقول : ألقيت إليه كذا، تعنى بذلك قلت لـــه[٥].

وألقوا إلى الله يومئذٍ السَّلم : وألقى المشركون إلى الله يومئذٍ السّلم. يقول : استسلموا يومئذٍ وذلّوا لحكمه فيهم ولم تغن عنهم آلهتهم الّتى كانوا يدعون فى الدّنيا من دون الله وتبرّأت منهم، ولا قومهم ولا عشائرهم الّذين كانوا فى الدّنيا يدافعون عنهم[٦].

---

(١) تفسير الطّبرى ١٠٦/١٤ .

(٢) الجلالين .

(٣) تفسير الطّبرى ١٠٦/١٤ .

(٤) تفسير الطّبرى ١٠٧/١٤ .

(٥) تفسير الطّبرى ١٠٧/١٤ .

(٦) تفسير الطّبرى ١٠٧/١٤ .

تقرّر الآية الكريمة الأولى أنّ المشركين إذا رأوا يوم القيامة شركاءهم الّذين كانوا يعبدونهم من دون الله تعالى قالوا ياربّنا هؤلاء شركاؤنا فى الكفر بك والّذين كنّا ندعوهم آلهةً من دونك. وإنّ لسان حالهم يقول على نحو ما جاء فى سورة الأعراف[1] : ﴿كلّما دخلت أمّةٌ لعنت أختها حتّى إذا ادّاركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربّنا هؤلاء أضلّونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النّار﴾.

فقال الشّركاء المتبوعون المعبودون للتّابعين العابدين إنّكم لكاذبون فى قولكم إنّا أمرناكم بعبادتنا.

وتقرّر الآية الكريمة الأخرى أنّ المشركين التّابعين استسلموا لأمر الله تعالى، وانقادوا لحكمه، ونالوا العذاب الّذى يستحقّون، وضلّ عنهم وغاب ماكانوا يفترون من آلهة ويدعون من أصنام وأوثان.

وما أكثر الآيات الكريمات الّتى أشارت إلى الخصام يوم القيامة بين العابدين والمعبودين ومنها قوله عزّ من قائلٍ فى سورة الأحقاف[2] : ﴿ومن أضلّ ممّن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون. وإذا حُشِرَ النّاس كانوا لهم أعداءً وكانوا بعبادتهم كافرين﴾.

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾

تقرّر الآية الكريمة أنّ الله سبحانه وتعالى يزيد يوم القيامة الّذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله تعالى عذاباً فوق العذاب بسبب إفسادهم فى الحياة الدّنيا. أمّا العذاب الأوّل ففى مقابل كفرهم والعياذ بالله. وأمّا زيادة العذاب ففى مقابل صدّهم الآخرين عن الدّخول فى دين الإسلام الّذى بعث الله تعالى به خير الأنام ﷺ. وأيّ إفساد وراء الكفر والصّدّ عن سبيل الله تعالى. وقد جاء فى أولى آيات سورة محمّد ﷺ قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿الّذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله أضلّ أعمالهم﴾.

---

(١) الآية ٣٨.

(٢) الآية ٥ و ٦.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾

وجه الشّبه كبيرٌ بين الآية الكريمة وبين قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة النّساء[1] : ﴿فكيف إذا جئنا من كلّ أمّةٍ بشهيدٍ وجئنا بك على هؤلاء شهيداً. يومئذٍ يودّ الّذين كفروا وعصوا الرّسول لو تُسَوَّى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً﴾ روى البخارى[2] ومسلم وأحمد وغيرهم عن عبدالله بن مسعود قال : قال لى رسول الله ﷺ : اقرأ عليّ. فقلت : يارسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال : نعم. إنّى أحبّ أن أسمعه من غيرى. فقرأت سورة النّساء، حتّى أتيت إلى هذه الآية : فكيف إذا جئنا من كلّ أمّةٍ بشهيدٍ وجئنا بك على هؤلاء شهيداً. فقال : حسبك الآن. فإذا عيناه تذرفان[3].

وأوّل ما يلاحظ فى مجال المقارنة بين صدر الآية الكريمة وصدر الآية الكريمة الرّابعة والثّمانين فى هذا القسم من السّورة مجىء حرف الجرّ ؛ «فى» هنا ومجىء حرف الجرّ : «من» هنالك : ﴿ويوم نبعث فى كلّ أمّةٍ شهيداً﴾، ﴿ويوم نبعث من كلّ أمّةٍ شهيداً﴾ ومن البيّن دور حرف الجرّ «فى» هنا فى تعميق الحقيقة القائمة من كون ربّ العزّة لم يرسل رسولاً إلّا بلسان قومه أي فى أعماقهم ومن أنفسهم. واللّطيف أنّ حرف الجرّ «فى» كان المرشّح لمجىء المعنى بصريح اللّفظ فى القول : ﴿من أنفسهم﴾ وبذلك تمّ الجمع فى نسق بين حرفي الجرّ : «فى» و : «من» ولفظة الأنفس. قال تعالى : ﴿ويوم نبعث فى كلّ أمّةٍ شهيداً عليهم من أنفسهم﴾.

انّ ربّ العزّة يبعث يوم القيامة في كل أمّةٍ شهيداً عليهم من أنفسهم، وهذا الشّهيد، هكذا فى صيغة المبالغة، هو رسول الله تعالى المصطفى إليها ونبيّه المجتبى. وبشأن أمّة الإسلام الشّهيد عليها خير الأنام محمّد بن عبدالله ﷺ.

---

(١) الآية ٤١ و٤٢.

(٢) صحيح البخارى ٥٧/٦.

(٣) تفسير ابن كثير ٤٩٨/١.

وبشأن المصطفى ﷺ نزّل الله تعالى عليه الكتاب العزيز والقرآن الكريم : ﴿تبياناً لكلّ شيء﴾ قال ابن مسعود : قد بيّن لنا فى هذا القرآن كلّ علم وكلّ شيء[1] كما نزّل الله تعالى القرآن الكريم هدىً من الضّلالة ورحمةً للمؤمنين فى الأولى فهو النّور المبين والصّراط المستقيم وهو بشرى للمسلمين بالجنة فى الآخرة. وبهذا تتحقّق للمسلمين ربّ العالمين الحياة الطّيّبة فى الدّارين.

(١) تفسير ابن كثير ٢/٥٨٢ وتفسير الطّبرى ١٤/١٠٨ .

﴿ثواب الوفاء بالعهود وعقاب نقضها﴾
الآيـــات (٩٠ــ٩٧)

إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾

إنّ الله يأمر بالعدل : الإنصاف. ومن الإنصاف الإقرار بمن أنعم علينا بنعمته والشّكر له على إفضاله وتُولى الحمد أهله[١].

والإحسان : الصّبر لله على طاعته فيما أمر ونهى، فى الشّدّة والرّخاء والمكره والمنشط وذلك هو أداء فرائضه[٢].

وإيتاء ذى القربى : وإعطاء ذى القربى الحقّ الّذى أوجبه الله عليك بسبب القرابة والرّحم[٣] عن ابن عبّاس : وإيتاء ذى القربى، يقول : الأرحام[٤].

وينهى عن الفحشاء : عن ابن عبّاس : الفحشاء : الزّنا[٥] والفواحش : المحرّمات[٦].

والمنكر : المنكرات ماظهر من الفواحش من فاعلها[٧].

والبغي : عن ابن عبّاس : البغي الكبر والظّلم[٨] وأصل البغي التّعدّى ومجاوزة القدر والحدّ من كلّ شيء[٩].

رُوي عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه أنّه قال : إنّ أجمع آيةٍ فى القرآن فى سورة النّحل : ﴿إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى﴾ إلى آخر الآية[١٠].

---

(١) تفسير الطّبرى ١٤/١٠٨ .
(٢) تفسير الطّبرى ١٤/١٠٩ .
(٣) تفسير الطّبرى ١٤/١٠٩ .
(٤) تفسير الطّبرى ١٤/١٠٩ .
(٥) تفسير الطّبرى ١٤/١٠٩ .
(٦) تفسير ابن كثير ٢/٥٨٢ .
(٧) انظر تفسير ابن كثير ٢/٥٨٢ .
(٨) تفسير الطّبرى ١٤/١٠٩ .
(٩) تفسير الطّبرى ١٤/١٠٩ .
(١٠) تفسير الطّبرى ١٤/١٠٩ .

إنّ الآية الكريمة فى القسم الأوّل تقرّر أنّ الله سبحانه وتعالى يأمر بالعدل وبالإنصاف فلا نظلم الآخرين ولا يظلمنا الآخرون. كما يأمرنا جلّ وعلا بما هو فوق العدل وهو الإحسان والفضل، بمعنى أنّك تنصف الآخرين بأن تعطيهم كامل حقوقهم، وفوق ذلك أنت تتنازل لهم بطيب نفسٍ منك عن بعض حقّك فتعطيهم إيّاه. ولمّا كان النّاس سواءً فى نيل حقوقهم وحظوظهم من العادل والمحسن وكان أولو القربى يزيدون على غيرهم بصلة الرّحم، وللرّحم مكانها العظيم فى الإسلام فإنّ الآية الكريمة تخصّ الأرحام فتقرّر أنّ ربّ العزّة يأمرنا بأن نؤتي ذوى القربى ونعطيهم. وتسكت الآية الكريمة عن الشّيء الّذى نعطيه ذوى القربى والأرحام وإن كانت الآية الكريمة السّادسة والعشرون من سورة الإسراء قد نصّت على الشّيء المُعْطَى. قال تعالى: ﴿وآت ذا القربى حقّه والمسلمين وابن السّبيل ولا تبذّر تبذيراً﴾ وحقّ ذوى القربى والأرحام عامّ، ويختلف هذا الحقّ بناءً على حالهم. وإنّ القاسم المشترك فى هذا الحقّ هو الصّلة. وهذه الصّلة يضبطها أحوال ذوى القربى والأرحام من غنىً وفقر، استغناءٍ وحاجة، وما إلى ذلك. إنّ صلة ذوى القربى والأرحام من تقوى الله تعـــالى.

ومن البيّن أنّ الأوامر ثلاثةٌ تتدرّج حيث الأعلى. إنّ الإحسان عدلٌ وزيادة، وإنّ إيتاء ذوى القربى حقوقهم إحسانٌ وزيادة. وهذه الزّيادة يمكن أن يعبّر عنها بصلة الـــرّحم.

فإذا تحوّلنا إلى النّواهى فى القسم الثّانى تبيّنّا أنّها هي الأخرى ثلاثة وأنّها كذلك تتدرّج حيث الأعلى. قال تعالى: ﴿وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى﴾ والفحشاء: ماعَظُم قبحه من الأفعال والأقوال[1] فإذا تحوّلنا إلى المنكر تبيّنّا أنّه يزيد على الفحشاء بكونه ذلك الّذى يُنْكَرُ شرعاً وعقلاً. لنضرب مثلاً لكلٍّ من الفحشاء والمنكر. إنّ الزّنى ـ مثلاً ـ من الفواحش. وقد جرت العادة أن يرتكب الزّنى سرّاً وفى الخفاء. فإذا كان ثمّة سفاحٌ وإعلانٌ للزّنى ومجاهرةٌ بهذه الفحشاء كان ذلك هو المنكر الّذى ينكره كلٌ من الشّرع والعقل. وهكذا يتبيّن أنّ المنكر فحشاء وزيادة. وإنّ الشّيء ذاته يقال عن البغي. إنّه منكرٌ وزيادة. ومن أجل توضيح أبعاد البغى نحن بحاجة إلى الحديث فى تدرّج هذه العناصر الثّلاثة واتّجاهها حيث الأعلى. لقد عرفنا أنّ الزّنى ـ مثلاً ـ وهو

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى: «فحش» ٢٧٣.

فحشاء يرتكب عادةً فى السّرّ، وأنّ الزّنى حينما يُعْلَن ويرتكب على رءوس الأشهاد كان منكراً. وهذا المنكر ينبغى أن يغيّر باليد، أو باللّسان، أو بالقلب. وحينما يكون تغيير المنكر على درجةٍ كبيرةٍ من الصّعوبة فى الكثير من الأحايين فكيف بالبغي بمعنى مجاوزة الحدّ فى الظّلم والعدوان، بباعث القوّة الغاشمة، والضّمائر النّائمة. لاشكّ أنّ الدّاء عَياء.

وتختم الآية الكريمة فى قسمها الثّالث والأخير بتقرير أنّ الله سبحانه وتعالى يعظنا بهذه الأوامر والنّواهى كي نتذكّر ونتدبّر ونتّعـظ.

وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾

ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها : ولا تخالفوا الأمر الّذى تعاقدتم فيه الأيمان. يعنى بعد ما شددتم الأيمان على أنفسكم فتحنثوا فى أيمانكم وتكذبوا فيها وتنقضوها بعد إبرامها. يقال منه : وكّد فلانٌ يمينه يوكّدها توكيداً إذا شدّدها. وهي لغة أهل الحجاز. وأمّا أهل نجدٍ فإنّهم يقولون : أكّدتها أؤكدّها تأكـيداً[1].

وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً : وقد جعلتم الله بالوفاء بما تعاقدتم عليه على أنفسكم راعياً يرعى الموفى منكم بعهد الله الّذى عاهد على الوفاء به والنّـاقض[2].

تشير الآية الكريمة إلى العهد فى القول : ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم﴾ والعهد حفظ الشيء ومراعاته حالاً بعد حال[3] والآية الكريمة تأمر بالوفاء بعهد الله تعالى إذا عاهدنا نحن المسلمين غيرنا مهما يكن دينهم وعقيدتهم. كما تشير الآية الكريمة إلى الأيمان المؤكدة المقترنة بالعهد أو بالعقد. وإنّ العقد أو العهد المؤكّد بيمين هو الميثاق[4] وبذلك

---

(١) تفسير الطّبرى ١٤/١١٠ .

(٢) تفسير الطّبرى ١٤/١١٠ .

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «عهد» ٣٥٠ .

(٤) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى : «وثق» ٥١٢ .

تنهى الآية الكريمة عن نقض الميثاق، وكأنّ الآية الكريمة فى أمرها بالوفاء بالعهد وفى نهيها عن نقض الميثاق وقد جعلنا الله سبحانه وتعالى كفيلاً يرعى الموفى بالعهد ويثيبه ويراقب النّاقض للميثاق ويعاقبه تأخذ بسبب من قول الحقّ جلّ وعلا فى الثّناء على أولى الألباب وأصحاب العقول الرّاجحة فى سورة الرّعد[1] : ﴿أفمن يعلم أنّما أنزل إليك من ربّك الحقّ كمن هو أعمى. إنّما يتذكّر أولو الألباب. الّذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق﴾.

وايماءً إلى الثّواب الجزيل فى حقّ من وفى وإلى العذاب الأليم فى حقّ من غدر يجىء التّذييل : ﴿إنّ الله يعلم ما تفعلون﴾.

وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ
غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا
بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ
اللَّهُ بِهِ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾

نَقَضَتْ : النَّقض انتثار العَقْد من البناء والحَبْل والعِقْد وهو ضدّ الإبرام. يقال : نَقَضْتُ البناء والحبل والعِقْد، وقد انتقض انتقاضاً. ومِنْ نقض الحبل والعِقْد استُعير نقض العهد[2].

غزلها : حبلها تنقضه بعد إبرامها إيّاه ولا تنتفع به بعد[3] يقال : غَزَلت المرأة القطن والكَتّان وغيرهما تغزله غَزْلاً، وكذلك اغتزلته وهى تَغْزل بالمِغْزل[4].

أنكاثاً : حال من غزلها منصوبة[5] والنّكث، بفتح النّون، نقض ما تعقده وتصلحه من بيعةٍ وغيرها[6] وفى الأصل نكث الأكسية والغَزْل وهو قريبٌ من النّقض، واستعير لنقض العهد[7] وواحد الأنكاث نِكث، بكسر النّون، وهو الغَزْل من الصّوف

---

(١) الآية ١٩ و ٢٠ .
(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «نقض» ٥٠٤ .
(٣) تفسير الطّبرى ١١١/١٤ .
(٤) لسان العرب : «غزل» .
(٥) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٣١٤/٧ .
(٦) لسان العرب : «نكث» .
(٧) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى : «نكث» ٥٠٤ .

أو الشّعر، تُبْرَم وتُنْسَج، فإذا خَلَقت النّسيجة قُطِّعت قِطَعاً صغاراً، ونُكِثَتْ خيوطها المبرومة، وخُلِطت بالصّوف الجديد ونَشِبَتْ به، ثمّ ضُربت بالمطارق وغزلت ثانيةً واستعملت. والّذي ينكثها يقال له : نكّاث. ومِنْ هذا نكث العهد، وهو نقضه بعد إحكامه، كما تُنْكَثُ خيوط الصّوف المغزول بعد إبرامه[1] ويقول الطّبري[2] : «وقيل إنّ الّتي كانت تفعل ذلك امرأة حمقاء معروفة بمكّة» تُسَمّى خرقاء[3] : «وقال آخرون : إنّما هذا مثلٌ ضربه الله لمن نقض العهد فشبّهه بامرأةٍ تفعل هذا الفعل»[4].

دخلاً بينكم : خديعة وغروراً[5] خيانةً وغدراً بينكم[6].

أن تكون أمّةٌ هي أربى من أمّة : من أجل أن كان هؤلاء أكثر من أولئك نقضتم العهد فيما بينكم وبين هؤلاء[7] وكانوا أعزّ وأمنع[8].

إنّما يبلوكم الله بكم : إنّما يختبركم الله بأمره إيّاكم بالوفاء بعهد الله إذا عاهدتـــم[9].

أمرت الآية الكريمة قبل السّابقة بالعدل ونهت عن البغي. وإنّ قمّة العدل الوفاء بعهد الله تعالى. ويتمثّل ذلك أساساً في العهد الّذي أخذه الله تعالى من عباده وهم في عالم الذّرّ بأن يفردوه جلّ وعلا بالعبادة ولا يشركوا به شيئاً على نحو ما بيّنت الآيتان الكريمتان الثّانية والسّبعون بعد المائة والثّالثة والسّبعون بعد المائة من سورة الأعراف. ووراء ذلك ينبغي الوفاء بعهد الله تعالى وعدم نقضه. وإنّ الآية الكريمة السّابقة بيّنت هذا المعنى. وها هي ذي الآية الكريمة الّتي نحن بصددها تؤكد النّهي عن نقض المواثيق. إنّ الآية الكريمة تنهى المسلمين لله ربّ العالمين عن نقض المواثيق فيكونوا مثل تلك المرأة

---

(١) لسان العرب : «نكث».

(٢) تفسير الطّبري ١١١/١٤.

(٣) فتح الباري ٣٨٧/٨ وصحيح البخاري ١٠٣/٦.

(٤) تفسير الطّبري ١١١/١٤.

(٥) تفسير الطّبري ١١٢/١٤.

(٦) تفسير الطّبري ١١٢/١٤.

(٧) تفسير الطّبري ١١٣/١٤.

(٨) تفسير الطّبري ١١٢/١٤.

(٩) تفسير الطّبري ١١٣/١٤.

الحمقاء الخرقاء الّتى تُحْكِم غزل حبلها حتّى يكون غايةً فى القوّة والمتانة ويمكن لها أو لغيرها استعماله والانتفاع به فتكرّ على الحبل بالنّقض، والغَزْل بالنّكث، فيعود الحبل قطعاً متفرّقة، وأشلاء متمزّقة. ثمّ تعاود تلك المرأة الحمقاء الخرقاء الغزل والإبرام، ثمّ تكرّ على الحبل بالنّكث والنّقض، وهكذا دواليك، لاتستقرّ على حال، ولا تصل بسبب حمقها وسخفها إلى مـآل.

إنّ حال من يتّخذ آيات الله تعالى هزواً، والأيمان المغلّظة حيلةً وخديعة، تمويهاً وتضليلاً، بقصد اغتنام الفرصة، وتربّص الدّوائر، ونكث العهد، ونقض الميثاق، حينما يتحوّل موقفه من الضّعف إلى القوّة، إمّا بذاته أو بالتّحالف مع الأقوياء من أجل الغدر بمن أعطاهم عهد الله تعالى وميثاقه فصدّقوه وائتمنوه فأخذهم لضعفهم على غرّة، وفتك بهم على حين غفلة، إنّ حال من يفعل ذلك حال تلك المرأة الحمقاء الخرقاء الّتى تنقض غزلها من بعد قوّة وحُسْن إبرام أنكاثاً وقطعاً، شَذَرَ ومَذَر[1].

وفى القول: ﴿إنّما يبلوكم الله به﴾ تقرّر الآية الكريمة أنّ ربّ العزّة يختبر المسلمين بأمره لهم بالوفاء بالعهود والمواثيق ونهيهم عن نقضها. فمن وفى أثيب ومن غدر عوقب. وفى القول: ﴿وليبيّننّ لكم يوم القيامة ماكنتم فيه تختلفون﴾ تقرّر الآية الكريمة أنّ ربّ العزّة سوف يبيّن للنّاس جميعاً ماكانوا يختلفون فيه فى الدّنيا فى شأن الدّين. إنّ ثواب المؤمنين الجنّة وعذاب الكافرين النّار.

وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

أشارت الآية الكريمة السّابقة إلى أنّ ربّ العزّة يختبرنا بالأوامر والنّواهى لمعرفة المطيع والعاصى. وإنّ الآية الكريمة الّتى نحن بصددها تقول بلسان الحال إن لم يكن بلسان المقال بأنّ ربّ العزّة يبتلى أهل الحقّ بأهل الباطل، فكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلِق له من الإيمان أو الكفر. إنّ الآية الكريمة تقرّر أنّ ربّ العزّة لو شاء لجعل النّاس جميعاً أتباع دينٍ سماويّ واحد، وكتابٍ سماويّ واحد، ورسولٍ كريمٍ واحد. ولكنّ الله سبحانه وتعالى يرسل رسله ويبعث أنبياءه وبذلك يتحقّق للبشريّة هدى الدّلالة والإرشاد. وهذا

---

(١) يقال: ذهب القوم في كلّ وجه شذرَ مذَر. انظر اللّسان: «شذر».

النوع من الهداية يقوم به بفضل الله تعالى الدّعاة فى كلّ زمانٍ ومكان . وإنّ من ضلّ عن سبيل الله تعالى وآثر العمى على الهدى أضلّه الله تعالى وزاده عمى . وإنّ من جاهد فى الله تعالى هداه جلّ وعلا سبله وشرح صدره للإسلام فكان واحداً من أمّة خير الأنام ﷺ . وهذا النّوع من الهدى هدى التّوفيق من ربّ العباد جلّ وعلا .

ويوم القيامة سوف يُسْأل كلّ من المؤمنين والكافرين عمّا كانوا يعملون ، وبناءً على الإيمان أو الكفر ، عمل الصّالحات أو السّيّئات سوف يجازون ولن يُظْلَمَ أحدٌ بحذف حسنةٍ أو بإضافة سيّئة .

وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾

دخلاً بينكم : الدّخل العيب والغشّ والفساد[1] .
فتزلّ قدمٌ بعد ثبوتها : فتهلكوا بعد أن كنتم من الهلاك آمنين[2]
وتذوقوا السّوء : عذاب الله[3] .

دليلاً على خطورةالعهد والميثاق وتأكيداً لأهمّيّة الوفاء بهما وعدم نقضهما تنهى الآية الكريمة المسلمين لله ربّ العالمين أن يتّخذوا أيمان الله تعالى الّتى يقسمون بهاحينما يتعاهدون دَخَلاً بينهم أو أن يجعلوها ستاراً لإضمار الغشّ والخديعة ووسيلةً لحمل الطّرف الآخر على أمن جانبكم والاطمئنان إليكم . فإذا ما تمكّنت من الآخر الغفلة وواتكم الفرصة غدرتم به ونكثتم العهد الّذى بينكم وبينه ونقضتم الميثاق . إنّ من يفعل ذلك منكم بمثابة من زلّت به النّعل بعد ثبات ، وسقط فى الهاوية بعد استقرار . وإنّ من يفعل ذلك سوف يذيقه الله تعالى سوء العذاب لأنّه بغدره صدّ الآخرين عن سبيل الله تعالى

---

(١) اللّسان : «دخل»
(٢) تفسير الطّبرى ١١٣/١٤
(٣) تفسير الطّبرى ١١٣/١٤

وعن الدّخول فى دين الإسلام لأنّ المسلم الّذى يتّخذ يمينه وقَسَمَه وسيلةً للغشّ والخداع يصدّ عن سبيل الله تعالى ، لأنّ الآخرين يقولون لو أنّ دين الإسلام صحيح لفعل فعله فى سلوك أتباعه . وحينما لا يكون للإسلام ذلك الأثر المطلوب فى أتباعه فذلك معناه أنّه مرغوبٌ عنه . وهكذا ينصرف المغدور بهم عن اعتناق دين الإسلام وبذلك يكون الغادرون صادّين عن سبيل الله تعالى بهذا المعنى . ولهذا جاء فى ختام الآية الكريمة خطاباً للغادرين : ﴿ولكم عذابٌ عظيم﴾ وهذا العذاب العظيم كما يكون فى الآخرة يصحّ أن يكون فى الدّنيا .

ودليلاً على تثبيت الوفاء بالعهد دعائم الإسلام فى البلاد فى الإمكان الاستئناس بالنّصّ التّالى فى سيرة عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه وفى أمره ولاته بالوفاء بالعهود ، يقول ابن الأثير فى سيرة عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه[1] : «كتب عمر إلى سليمان بن أبى السّريّ : أن اعمل خانات . فمن مرّ بك من المسلمين فاقروه يوماً وليلة وتعهّدوا دوابّهم . ومن كانت به عِلّةٌ فاقروه يومين وليلتين . وإن كان منقطَعاً به فأبلغه بلده . فلمّا أتاه كتاب عمر قال له أهل سمرقند : قتيبة ظلمنا وغدر بنا فأخذ بلادنا ، وقد أظهر الله العدل والإنصاف فأذن لنا فليقدم منّا وفدٌ على أمير المؤمنين . فأذن لهم ، فوجّهوا وفداً إلى عمر . فكتب لهم إلى سليمان . إنّ أهل سمرقند شكوا ظلماً وتحاملاً من قتيبة عليهم حتّى أخرجهم من أرضهم . فإذا أتاك كتابى فأجلِسْ لهم القاضى فلينظر فى أمرهم . فإن قضى لهم فأخرج العرب إلى معسكرهم كما كانوا قبل أن يظهر عليهم قتيبة . قال : فأجلس لهم سليمان جُمَيْع بن حاضر القاضى ، فقضى أن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم وينابذوهم على سواء فيكون صلحاً جديداً أو ظفراً عنوة . فقال أهل الصُّغْد : بل نرضى بماكان ولا نحدث حرباً وتراضوا بذلك» .

---

(١) الكامل فى التّاريخ لابن الأثير ٦٠/٥

وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ
هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ
وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ
مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

تنهى الآية الكريمة الأولى الّذين آمنوا أن يشتروا بعهد الله تعالى ويعتاضوا عن ميثاقه جل وعلا ثمناً قليلاً خبيثاً غير مباركٍ فيه . إنّ ثمن نقض العهد مهما يكن كثيراً وتعجب العينَ وَفْرَتُه فإنّه إلى زوال لأنّه ثمنٌ خبيثٌ ومالٌ حرام . وتقرّر الآية الكريمة أنّ ما عند الله تعالى من ثواب للأوفياء الّذين يعملون الصّالحات هوخيرٌ لنا إن كنّا نعلم ذلك ، وليتنا نعلمه كى نعمل ونستمسك به .

وتؤكّد الآية الكريمة الأخرى فحوى الآية الكريمة الأولى فتقرّر أنّ ما عندنا ينفد ويفنى . ويستوى فى ذلك الحلال والحرام . فكيف بالثّمن القليل للغدر ونقض العهد والميثاق . إنّ النّفاد فى حقّه آكد . وفى مقابل نفاد ما عندنا وفنائه بقاء ما عند الله تعالى وخلوده . إنّ البركة فى الحياة الأولى بإذن الله تعالى حاصلة . وإنّ الحياة الطّيبة فيها قد وعد الله تعالى بها . أمّا فى الآخرة فإنّ جزاء الصّابرين الّذين عملوا الصّالحات وأحسنوا سيكون ، بإذن الله تعالى ، بأحسن ما كانوا يعملون من صالحاتٍ وحسناتٍ . أمّا السّيّئات فإن الله سبحانه وتعالى ، إن شاء ، يمحوها ويبدّلها حسناتٍ بفضله وجوده وكرمه . وحينما يصبر المؤمنون على الوفاء بالعهود فذلك معناه أنّهم يصبرون على الطّاعات ، ويصبرون عن المعاصى بنقض العهود . ووراء ذلك هم يصبرون على البلاء وعلى الابتلاء والامتحان من ربّ العالمين .

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ
أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ
أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾

تجمع الآية الكريمة بين خيرى الدّنيا والآخرة لكلّ ذكرٍ وأنثى آمن بالله تعالى ربّاً ، وبالقرآن الكريم منهجاً ، وبالمصطفى ﷺ رسولاً ، وبالإسلام ديناً ، وعمل صالحاً وفقاً

لتعاليم القرآن الكريم وتعاليم أشرف الأنبياء والمرسلين محمدّ بن عبدالله ﷺ المتمثّلة فى السّنّة النّبويّة المطهّرة المبيّنة للقرآن الكريم . إنّ من آمن وعمل صالحاً فإنّ الله سبحانه وتعالى سوف يحييه الحياة الطّيبة فى الأولى وفى الآخرة . أمّا الحياة الطّيّبة فى الأولى فإنّها راحة البال ، وطمأنينة النّفس ، وسعادة القلب ، وانشراح الصّدر ، والقناعة بما رزق الله تعالى ، والرّضا بما قدر الله جلّ وعلا . إلى غير ذلك من مظاهر الحياة الطّيّبة إلى أن تتوفّى ملائكة الرّحمة ذلك الشّخص الطّيّب وتقول له ولأمثاله الطّيّبين ساعة الوفاة كما جاء فى هذه السّورة الكريمة[1] : ﴿سلامٌ عليكم ادخلوا الجنّة بما كنتم تعملون﴾ وكما جزى الله تعالى الصّابرين فى الآخرة بأحسنِ ما كانوا يعملون جزى الله تعالى المؤمنين الّذين عملوا الصّالحات فى الآخرة بأحسنِ ما كانوا يعملون وذلك فى هيئة الحياة الطّيّبة فى الجنّة الّتى فيها مالا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر .

---

(١) سورة النّحل ٣٢

﴿اقرأوا القرآن الّذى نزّله روح القدس من رب العالمين عَلى المصطفى ﷺ واعملوا به﴾
الآيات (٩٨—١١١)

فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ
فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ
عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا
سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾

وعلى ربّهم يتوكلّون : الضّمير فى به عائدٌ على ربّهم . وقيل على الشّيطان وهو الظّاهر لاتّفاق الضّمائر . والمعنى : والّذين هم بإشراكهم إبليس مشركون بالله . أو تكون الباء للسببيّة[1] ونحن مع الرّأى القائل باتّفاق الضّمائر .

تأمر الآية الكريمة الأولى المؤمنين أمر نَدْبٍ وإباحةٍ بأنّهم إذا أرادوا قراءة القرآن الكريم أن يستعيذوا بالله تعالى السّميع العليم من الشّيطان الرّجيم كأن يقول القارىء بين يدى التّلاوة : أعوذ بالله من الشّيطان الرّجيم .

والآية الكريمة الثّانية تقرّر أنّ الشّيطان الرّجيم اللّعين الطريد من رحمة الله تعالى ليس له سلطانٌ ولا سيطرةٌ ولا حجّةٌ على الّذين آمنوا بالله تعالى ربّاً وبالإسلام ديناً وبمحمدّ ﷺ رسولاً وبالقرآن الكريم منهاجاً ، والّذين هم فى كلّ أعمالهم يتوكّلون على ربّهم جلّ وعلا ، مربّيهم بنعمه وآلائه .

وتقصر الآية الكريمة الثّالثة سلطان الشّيطان الرّجيم على الّذين يتّخذون الشّيطان الرّجيم وليّهم من دون الله تعالى والّذين هم بإشراكهم إيّاه مع الله تعالى فى العبادة مشركون فى الحقيقة بالله تعالى الواحد الأحد الفرد الصّمد الّذى يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد . .

والحقيقة أنّ القول فى الآية الكريمة : ﴿والّذين هم به مشركون﴾ الّذى نرى ـ والله تعالى أعلم ـ أنّ الضّمير من : ﴿به﴾ يعود إلى الشّيطان الرّجيم أسوةً بالضّمير فى جملة : ﴿يتولّونه﴾ يذكّرنا بقول الحقّ جلّ وعلا فى سورة يس[2] : ﴿ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألاّ تعبدوا الشّيطان إنّه لكم عدوٌّ مبين﴾ إنّ معنى النّهي عن عبادة الشّيطان النّهي عن طاعته [3] والشّيطان الرّحيم لا يأمر إلاّ بمعصية ولا ينهى إلاّ عن طاعة .

---

(١) البحر المحيط ٥/٥٣٥

(٢) الآية ٦٠

(٣) انظر ـ مثلاً تفسير الطّبري ٢٣/١٦ وتفسير ابن كثير ٣/٥٧٦ وتأمّلات في سورة يس قلب القرآن للمؤلف ص٨٣ الطبعة الحادية عشرة. مكّة المكرّمة.

وإنّ نهى آية سورة يس المسلمين عن عبادة الشّيطان الرّجيم بمعنى طاعته فى ارتكاب المعاصى وفى تحليل ما حرّم الله تعالى وتحريم ما أحلّ جلّ وعلا يذكّرنا بما جاء فى الآية الكريمة الحادية والثّلاثين من سورة التّوبة من أنّ اليهود اتّخذوا أحبارهم وهم العلماء وأنّ النّصارى اتّخذوا رهبانهم وهم العبّاد أرباباً من دون الله تعالى . لقد بيّن النّبيّ ﷺ معنى اتّخاذهم أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله تعالى لعديّ بن حاتم رضى الله عنه لمّا جاء إلى النّبيّ ﷺ فى المدينة راغباً فى الإسلام . «فتقدّم عديّ إلى المدينة وكان رئيساً فى قومه طَيِّء وأبوه حاتم الطّائى المشهور بالكرم ، فتحدّث النّاس بقدومه . فدخل على رسول الله ﷺ - وفى عنق عديّ صليبٌ من فضّة - وهو يقرأ هذه الآية[1] : ﴿اتّخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ قال : فقلت إنّهم لم يعبدوهم . فقال : بلى إنّهم حرّموا عليهم الحلال وأحلّوا لهم الحرام فاتّبعوهم ، فذلك عبادتهم إيّاهم»[2] .

وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ۙ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ
بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾

وإذا بدّلنا آيةً مكان آية : وإذا نسخنا حكم آيةٍ فأبدلنا مكانه حكم أخرى[3] .
والله أعلم بما ينزّل : والله أعلم بالّذى هو أصلح لخلقه فيما يبدّل ويغيّر من أحكامه[4] .
قالوا إنّما أنت مفتر : قالوا إنّما أنت كذّاب[5] تقوله من عندك[6] : ﴿كبرت كلمةً

---

(١) سورة التّوبة ٣١ .
(٢) تفسير ابن كثير ٢/٣٤٨
(٣) تفسير الطّبرى ١٤/١١٨
(٤) تفسير الطّبرى ١٤/١١٨
(٥) تفسير ابن كثير ٢/٥٨٦ والجلالين
(٦) الجلالين

تخرج من أفواههم إن يقولون إلّا كذبا﴾
بل أكثرهم لا يعلمون : حقيقة القرآن وفائدة النّسخ[1]
روح القدس : جبريل عليه السّلام[2] .
ليثبّت الّذين آمنوا : قل نزّل هذا القرآن ناسخه ومنسوخه روح القدس عليّ من ربّي تثبيتاً للمؤمنين وتقوية لإيمانهم ، ليزدادوا بتصديقهم لناسخه ومنسوخه إيماناً لإيمانهم[3] .

الآيتان الكريمتان ذواتا علاقة بالآية الكريمة السّادسة بعد المائة من سورة البقرة الّتى تتحدّث عن النّسخ . قال تعالى : ﴿ما ننسخ من آيةٍ أو نُنْسِها نأت بخير منها أو مثلها . ألم تعلم أنّ الله على كلّ شيءٍ قدير﴾ وإنّ الآية الكريمة الأولى تقرّر أنّ ربّ العزّة إذا بدّل آيةً مكان آية ، وإذا نسخت آيةٌ كريمةٌ لاحقةٌ حكم آيةً كريمةٍ سابقة ، والله سبحانه وتعالى أعلم بما ينزّل قال الكافرون إنّك يا محمّد تفترى هذا القرآن وتختلقه وتزعم أنّه موحىً إليك من ربّك والدّليل على ذلك النّسخ والتّبديل . ومن البيّن أنّ الآية الكريمة قبل تسجيلها الاتّهام : ﴿قالوا إنّما أنت مفتر﴾ تبيّن وجه الحقّ فى المسألة ، وتبرّيء ساحة المصطفى ﷺ من الاتّهام وذلك فى القول : ﴿والله أعلم بما ينزّل﴾ لأنّ الآية الكريمة النّاسخة إمّا أن تكون مساويةً للمنسوخة من حيث التّكليف وإمّا أن تكون خيراً منها من حيث التّخفيف أو التّكليف . إنّها إن كانت أخفّ فإنّ التّخفيف مظهرٌ من مظاهر رحمة الله تعالى بهذه الأمّة . لا يُسْأل جلّ وعلا عمّا يفعل وهم يُسْألون . ومن مظاهر تساوى الحكمين نسخ الاتّجاه فى الصّلاة إلى بيت المقدس بالاتّجاه فى الصّلاة إلى المسجد الحرام فى مكّة المكرّمة . ومن مظاهر التّخفيف نسخ فرض القيام باللّيل على المؤمنين . ومن مظاهر التّكليف نسخ صيام إيّامٍ معدوداتٍ من رمضان بصوم شهرٍ كامل[4] .

وفى مقابل تبرئة الآية الكريمة ساحة المصطفى ﷺ بين يدي افتراء الكافرين ثمّة وصمٌ للمفترين من خلف افترائهم وكشفٌ لعوارهم بأنّ أكثرهم لا يعلمون حقيقة القرآن الكريم ولا فوائد النّسخ ، ولهذا هم يهرفون بما لا يعرفون .

وإنّ حقيقة نزول القرآن جميعه ، بناسخه ومنسوخه ، محكمه ومتشابهه ، والحكمة من التّبديل الّتى لا يعلمها الكافرون المفترون تبيّن كلاًّ منهما الآية الكريمة الأخرى . إنّ

---

(١) الجلالين
(٢) تفسير الطّبرى ١١٨/١٤
(٣) تفسير الطّبرى ١١٩/١٤
(٤) درسنا الآية ١٠٦ من سورة البقرة فى : تأمّلات فى سورة البقرة ٦٠٦ ـ ٦١٢